

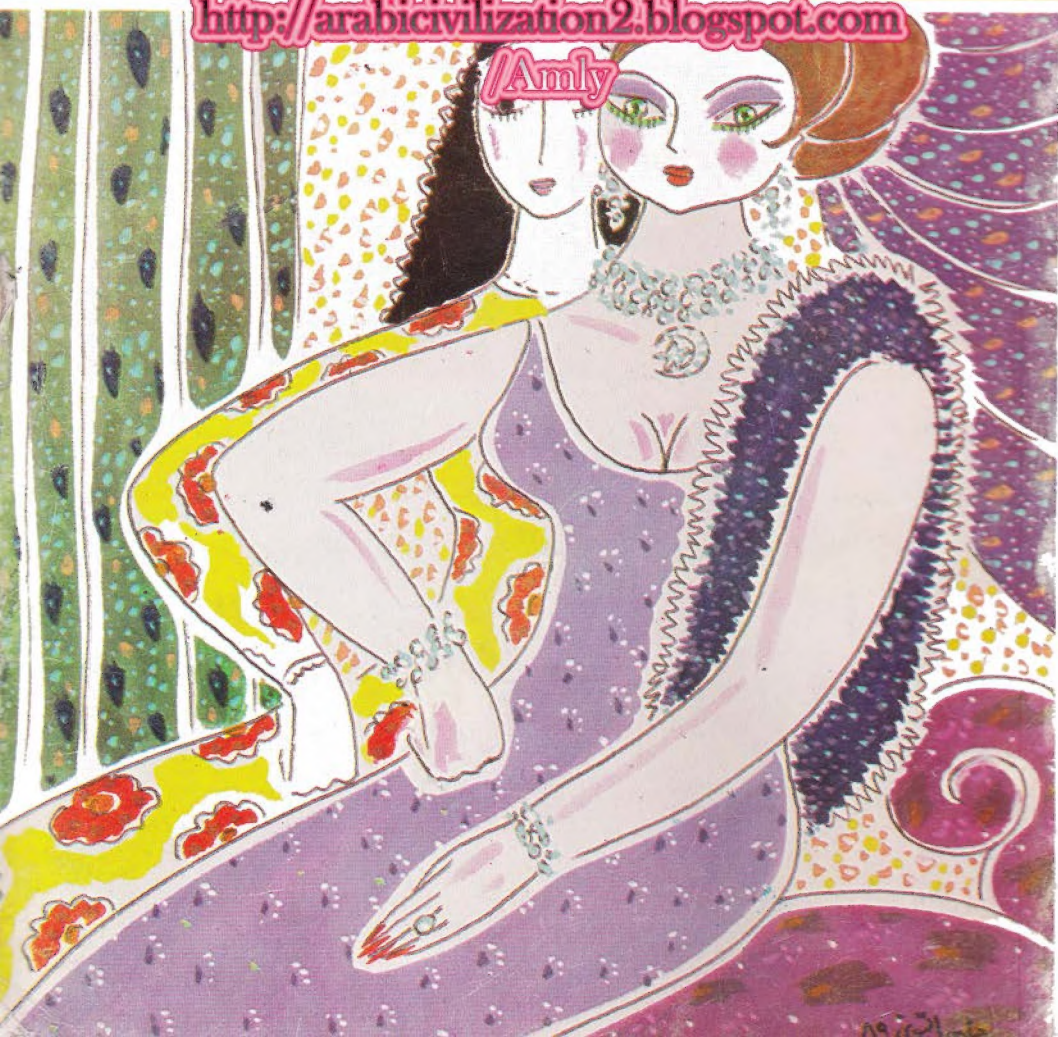
روايات  الهلال

رضوى عاشور

# خديجة وسوسن

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

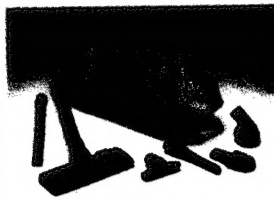
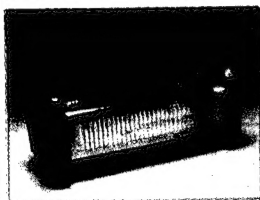
/Amly



# عالم الأبرقة الكهربائية تحت اسم ١٩٨٥ أولمبيك البتريك



**OLYMPIC**



لشركة القاهرة للصناعات الخفيفة - القاهرة - طاش ت : ٣٤١٤٨٢/٢١ - الوكالة الوحيدون : شركة المنتجات الهندسية والتوكيلات  
بع سهل الدبل المهراني - ميدان رمسيس ت : ٩٠٨١٤٤ - ٩٠٦٧٢ - فاكسيلي : ٩١١٢٩ - تليكس : ٢٢٥٦٠ OLYMPIC - ص.ب. ٢٨١ - القاهرة

## ● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .  
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحواله بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٠٠ قرش :-

لبنان ٧٠٠ ليرة ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبي ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٨٠٠ بييسه ، تونس ١٦٥٠ مليما ، المغرب ٢٠ درهما ، غزة والضفة ١٢٥ سنتا ، الجمهورية العربية اليمنية ٨ ريالات ، جمهورية اليمن الديمقراطية ٢ دولار ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١,٥٠ جك .

الكويت : السيد عبد العال بسيونى  
زغلول الصفاة - ص . ب رقم  
13079٢١٨٣٣ - تليفون -  
٤٧٤١١٦٤

شَرَك  
فِي  
رَوَايَات  
الهلال

للحصول على نسخ من روايات الهلال  
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة  
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

## روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة  
شهرية  
لنشر  
القصص  
العالمى

نصدر عن مؤسسة  
دار الهلال

العدد ٤٩٢ ديسمبر ١٩٨٩  
جمادى الاولى ١٤١٠ هـ  
NO . 492 DE . 1989

رئيس مجلس الإدارة  
مكرم محمد أحمد  
رئيس التحرير  
مصطفى نبيل  
سكرتير التحرير  
محمود قاسم

الغلاف بريشة الفنان :  
حلمي التونسي



# غُرُجِيَّةٌ وَأَسْوَأُ

بمِثْلَم

رضوى عاشور



دار الهلال



## الجزء الأول

### خديجة

- ١ -

سأقوم بدور الملك والا غلبن اللعب !  
مررت أن أوقعه في شر أعماله  
- أوافق - أنت الملك شرط أن توزع الادوار وتدير اللعبة . كنت  
واثقة من فشله ، ولكنه قال :  
- اذن أنا الملك ومجدي الوزير وأنت الجارية !  
وابتسم وهو ينظر الى بانتصار شرير . قلت :  
- لن اللعب !  
قال مجدي :

- أحمد على حق وأنت التي تفسدين كل شيء !  
- حتى أنت يا مجدي ؟

أدرت لهما ظهري وانصرفت الى حجرتي . أخرجت من درج المكتب  
كراسة الرسم والأقلام الملونة . أحمد غبي وبليد ولم يكن ترتيبه الاول  
في المدرسة طول حياته فكيف يكون قائدا للعبة ؟ ومجدي مزعج  
ويعاندني بلا داع . والاثنان أصغر مني فلماذا لا ينفذان ما أقوله ؟  
جلست الى المكتب وفتحت الكراسة الكبيرة . ماذا أرسم الآن ؟  
تركت النصف الأعلى من الصفحة ورسمت في نصفها الأسفل خطوطا  
زرقاء متموجة وأسمكا ، صغيرة وكبيرة ، برتقالية ورمادية ، وسمكة  
القرش بأسنانها المخيفة . وفي القاع رسمت نجم البحر والأصداف  
والقواقع والمحارة المغلفة على اللؤلؤ الثمينة يجاورها الاخطبوط الشرير  
رماسبيا ومقرقا .

عدت للجزء الابيض المتروك ، رسمت الشمس في الجهة اليمنى :  
دائرة تحيط بها خطوط أشعتها ، صفراء وبرتقالية ، وفوق الموج رسمت  
القارب : هلال نائم يعلوه شراع مثلث . وفي القارب البننت : وجه  
رصفيرتان وثوب منقوش بالزهور . ثم كتبت اسمي على الشراع  
فاكتملت الصورة . حملتها وركضت الى الولدين .

نظر مجدى الى الرسم منبهرا أما أحمد فلم يفوت الفرصة :

- تعالى يا خديجة لتلعبى معنا .

لم أنتظر تكرار الدعوة ، أعلنت :

- أنا الملكة ومجدى الوزير وأحمد السفير .

ثم وأنا أوجه الكلام الى أحمد :

- أرايت لقد عينتك سفيرا ، فلماذا تتصور اننى ضدك ؟ سوف

تحمل يا سفير أحمد كل الرسائل الهامة الى البلاد الاجنبية .

بدأت اللعبة : وقفت مرفوعة الرأس ومتصلبة كما يليق بملكة  
وأعلنت بصوت مجلجل :

- أنا خديجة ملكة مصر قررت بناء هرم أكبر من اهرام الجيزة

الثلاثة . ياوزير مجدى أبلغ الاهالى بالخبر السعيد وارسل فى طلب

المهندسين والبنائين والنقاشين والفنانين للبدء فى العمل .

- سمعا وطاعة يامولاتى .

- ياسفير أحمد ، اذهب بهذه الرسائل الى كل البلاد الصديقة

وادع ملوكها وملكاتهما ، والامراء والاميرات والنبلاء والفرسان ، والعلماء

المشهورين لحضور الحفل الكبير الذى تقيمه الملكة خديجة بعد شهر

احتفالا بانتهاء البناء .

- سمعا وطاعة يامولاتى .

- خذ هذا الخاتم دليل أنك سفير من عندى .

أخذ منى أحمد الخاتم الوهمى ووضعه فى اصبغه واستدار ليبدأ

مهمته .

- سيدوم احتفالنا اربعين يوما ، افراحا وليالى ملاحا فى القصر وفى

البلاد كلها .

مرت ثوان من الصمت قطعها تصفيق مجدى الذى أعلن :

- انتهى بناء الهرم الاكبر يامولاتى . علقنا الزينات وأقمنا

الاعياد .

بعدها صفق أحمد :

- عدت من رحلتى يامولاتى . دعوت كل الملوك والنبلاء .

قلت وأنا أقفز باتجاه طاولة قديمة وأبدأ فى الدق عليها :

- الآن نفتتح الحفل الكبير ، دقوا الطبول وانفخوا الابواق !

شاركنى مجدى فى الدق على الطاولة فى حين أخذ أحمد يقلد صوت

النفير وهو يتمايل بجسده . عدت الى مكانى لاستقبال المدعوين

ووقت مرفوعة الرأس أمسك طرف ثوبى بيدي اليسرى : يعلن أحمد اسم كل وفد فأجيب بإيماء ملكية وأمد يدي للسلام وفجأة قفز الى جوارى صائحا :

- الآن وقد اكتمل الضيوف ، نرحب بكم جميعا وندعوكم لحمل اللذة خديجة فى موكب كبير الى الهرم .. لندفنها فيه !

يضحك كالمجنون . لم أتصور انه سيخرج عن الدور المرسوم ويتصرف بهذا الشكل الشرير . انه ينتقم منى لأنى لم أعطه دور الملك . - أحمد ، يكفى ، هذه سخافة !

- الهرم مكان للدفن ، كلنا نعرف هذا ، أليس كذلك يامجدى ؟ رأيتَه يغمز بعينه لمجدى الذى أجاب :

- أحمد على حق !

- لا تفسدى اللعبة ، لابد أن تدفنى !

- لن أدفن !

\*\*\*

فى العطلة الصيفية أقضى معظم الوقت مع أخى أحمد ومجدى ابن الجيران ، نلعب فى حديقة البيت فى ظل النخلتين العسالتين اللتين تطرحان بلحا سمانيا أصفر ، نركض حول الاحواض المزروعة بالنعناع والعتر والريحان ، نلعب « استغماية » ، « وعسكر وحرامية » و « أولى » والعبا أخرى اخترعها أنا . نظل نلعب حتى يعود أبى من عمله فنصعد معه ، أنا وأحمد ، لتتناول الغداء أما مجدى فيعود الى بيت جدته .

أبى يعمل صيدليا . فى الصباح يشتغل فى معامل وزارة الصحة ، وفى المساء يذهب الى الصيدلية التى يمتلكها بالقرب من ميدان الجيزة وبإمكانى لو سمحوا لى أن أذهب وحدى . أمشى فى خط مستقيم حتى شارع الروضة ثم أعبر كوبرى عباس فأصل الصيدلية التى تعملها لافتة ضخمة تضيئها فى الليل مصابيح النيون ، مكتوب عليها بخط بارز « صيدلية الشفاء لصاحبها الدكتور محمود عبد الكريم » عندما تقول أمى أننى مؤدبة يكافئنى أبى باصطحابى معه الى الصيدلية .

أحب أن أرى أبى فى الرداء الأبيض يتحدث مع الزبائن ويقرأ « الروشتات » ويأتى بالدواء المطلوب من الارفف الكثيرة التى تغطي الجدران وأحب أن أراقبه حين يدخل الى الغرفة الداخلية ليصنع مزيجا . يمسك بزجاجة بنية ويضع فيها قمعا من البلاستيك الأخضر ثم يصب فيها محاليل مختلفة من زجاجات كبيرة بيضاء . وحين ينتهى من خلط المحاليل يرفع القمع ويغلق الزجاجة بسدادة من الفلين ويكتب على



المصطفى اسم الدواء وعدد مرات تناوله ثم يرج الزجاجة بقوة ويعطيها للزبون .

أحب الذهاب الى الصيدلية لان أبى يعطينى أوراقا مصفولة عليها صور ملونة ترسلها اليه شركات الدواء الاجنبية وأيضا لان هناك محلا كبيرا للعصير ملاصق للصيدلية . آخذ من أبى نقودا وأدخل المحل لأشتري كوبا من عصير المانجو . أعطى البائع ثلاثة قروش فيسألى بزجاجة عصير . ويصب منها فى كوب زجاجي كبير . أرى قطع المانجو وهي تنزلق مع العصير فى الكوب وأسمع صوت انزلاقها أيضا فيمتلىء فسى بالعاب . ولكن ماما لا تقول أننى مؤدبة الا نادرا . غالبا ما تقول اننى « معجونة بماء العفاريت ! » .

\*\*\*

— خديجة أنت لا تحبين الا نفسك ، أنت أنانية !

— وأنت غبى وحمار وكلب !

تدخل مجدى :

— أحمد على حق . لن نلعب معك أبدا وسنشيكك لامك .

— أنا أيضا سأقول لها انكما قفزتما أول أمس من فوق السور وذهبتما الى شارع الروضة دون اذنها .

أحمر وجه أحمد من الغيظ ووضع ذراعه على كتف مجدى وأعطاني ظهرهما وسارا بعيدا فتركتهما وذهبت .

فتحت دولا ب ملابس أمى ودسست وجهى داخله أبحث عنها بعينى وأنفى أيضا اذ كانت لها رائحة مميزة . . وجدتھا فحملتها بين يدى وجلست على السجادة بين السرير والحائط تحت النافذة العريضة التى تضى الحجرة .

انها حقيبة يد كبيرة نسسيا تذكرنى فى كل مرة بحقيبة الست حنيفة الحكيمة التى تدخن وتحدث فى السياسة كالرجال . الحقيبتان متشابهتان فى الشكل ، لهما نفس الجلد البنى القديم . ولكن حقيبة الست حنيفة التى تقول ماما أنها ساعدتها فى الولادة تفوح منها رائحة الدواء . عندما كنت صغيرة كنت أفزع من مجرد رؤية هذه الحقيبة لانى أعرف أن بداخلها الابرة الزجاجية والمحقن المعدنى والسن الرفيع الحاد ( تخرجهم الست حنيفة من حقيبتها وتضعهم فى أنية نحاسية تملؤها بالماء وتتركه على النار ليغلي بعدها تترك الابرة وتسحب فيها المصل ثم . . . ) كنت صغيرة وبلهاء . الآن كبرت وأصبح عندى عشر

سنوات . أرقب أبى وهو يربط ذراع أحد الزبائن بحبل مطاطى  
وبرشق سن الابرة الرفيع ، ولا أهتم .

ولكن رائحة هذه الحقيبة تختلف . أفتحها وأقلبها فتنهر  
الصور : صور كثيرة مختلفة الحجم واللون ، بعضها بياضه أصفر  
واسوده بنى ، وبعضها الآخر أبيض وأسود ، بعضها ورقة سميك  
والآخر لامع ومصقول أحب أن أمر عليه براحة يدي . بطاقات بريدية  
ملونة مكتوب على ظهرها بخطوط منمنمة لا أستطيع قراءتها . أفسح  
لنفسى مكانا بين الصور ، أنام على بطنى واستند على مرفقى وأبدأ فى  
التأمل .

صورة جدى لأبى الذى مات قبل أن أولد . كان مزارعا يملك أرضا  
يمر عليها كل يوم راكبا حصانه يباشر الفلاحين الذين يزرعون ، هذا  
ما يقوله أبى . جدى فى الصورة يرتدى جبة وقفطانا وعمامة وله شارب  
كث طرفاه مفتولان لأعلى . أضحك وأنا أتأمل أبى وأعمامى . أطفال  
يلبسون الطرابيش - أبى أصفرهم وأنحفهم - أعمامى الخمسة كلهم  
فى الصورة أما عماتى ففائتان منها « لماذا يا بابا ؟ » ، « لأن جسدك لم  
يكن يسمح للبنات بالذهاب الى المصور ولا للمصور بالدخول عليهن فى  
البيت » . جدى لأبى لم يكن يسمح ولكن أخاه ، جدى لأمى ، فقد  
أرسل بابنته الى المدرسة . وهذه صورة أمى وسط الزهور لها  
ضفirtان وعينان واسعتان وفم كبير مفتوح على آخره ، تضحك رغم  
أنها الآن لا تفعل ذلك الا نادرا وتعنفنى يوميا وتقول ان الضحك بصوت  
عال لا يناسب البنات .

عمتى فهيمة فى هذه الصورة التى التقطها لها أبى عندما جاءت  
الى القاهرة للعلاج تبدو متجهمة مسكينة ! يكرر أبى كلما رأى الصورة  
« لأنها ماتت يا بابا ؟ لأنها ماتت قبل أن تتزوج » كانت عمتك جميلة  
وطيبة وتحسن الطهو ولكنها مسكينة بلا حظ ماتت قبل أن تتزوج .  
عمتى فهيمة هى المسكينة أما عمتى كريمة فببى المحظوظة لأنها تزوجت ،  
وزوجها رجل طويل جدا وعجوز و « مناخيره قد الكرز » . أضحك  
لانطباى المثل عليه ، وهو دائما مكفهر الوجه يزرع عتوى ويخاف ليا  
المشاكل ولا يبتسم الا لو جاءه ضيوف أو نجح أحد أبنائه الثمانية .

« بابا فى العمل » لمحت طرفا لصورته المفضلة عندى فسحبته من  
تحت كومة سن الصور . أبى وهو طالب فى كلية الصيدلة بالجامعة

يقف في المعمل بين الأنايب الزجاجية غريبة الشكل ، يضحك وهو يرتدي البالطو الأبيض .

فوجئت بضحكته الليفة تقطع صمت الحجرة ، رفعت عيني فرأيتها، نظرت حولي فوجدت الصور المتناثرة تغطي السجادة . رحت أعيدها بسرعة الى الحقيبة يهون من أسفى عودة أبى من عمله وحلول ساعة الغداء .

ـ بابا هل يمكن أن آخذ هذه الصورة ؟

رفعت صورته في المعمل ليراها . عندما وافق جمعت الصور المتناثرة وأعدتها الى الحقيبة التي ألقيت بها على عجل في قاع الدولاب واندفعت راكضة الى غرفتي ولكن أبى ناداني لكي أغلق باب الدولاب الذى تركته مفتوحا على مصراعيه . فعلت ثم ذهبت الى حجرتي وثبتت الصورة في الاطار الخشبي لمرأة التسريحة .

بابا وسيم في الصورة وفي الحقيقة ويعرف أشياء كثيرة كلها مدهشة وهو ظريف يعرف كيف يجعلنى أضحك حتى عندما أكون غاضبة أو أبكى .

عندما كنت صغيرة كنت أريد أن أكون مثل أبى فى كل شيء وأن أصبح صيدلية مثله . كنت أجمع العلب الفارغة وصناديق الكرتون الصغيرة وأصفها على المائدة المائدة المركونة تحت تكعيبه العنب وأبيع الدواء لأحمد ومجدى . ثم غيرت رأيي وأعلنت على مائدة الغداء : « عندما أكبر سأصبح بطلة رياضية » أنا أمهر تلميذة في المدرسة ، أستطيع تنفيذ أى تمرين تطلبه المدرسة وهى تقول لزميلاتي : « أنظرن كيف تؤدي خديجة التمرين » فينظرن . فى مسابقات الركض أسبق الجميع وعندما أراهن أحمد ومجدى على أى منا يستطيع الوقوف على رأسه مدة أطول أكسب ويخسران . وبمقدورى أن أمشى على يدي أما هما فلا يقدران . كنت أريد أن أصبح بطلة رياضية ، كان ذلك العام الماضى ، الآن لا أريد . سأدرس الجغرافيا وأطوف العالم كسندباد ، هذا هو قرارى الأخير . قلت ذلك لأبى وأمى وأحمد ومجدى وزميلاتي فى المدرسة ولأبلة فاطمة مدرسة الجغرافيا التى قالت : « الخريطة التى رسمتها خديجة هى أفضل خريطة .. صفقن لها » فصفقت لى البنات وأخذت الكراسى فوجدت ١٠/١٠ ونجمة ذهبية جميلة ملصقة بجوار كلمة « ممتاز » .

عندما أكبر سأطوف العالم ، سأرسم خرائط وصورا للمناطق التى أزورها ، وسأكتب عن الأشياء الغريبة التى أراها وأحتفظ بكل

شيء في صندوق خشبي ضخم يشبه بصندوق عمى كريمة التي تقول  
إنها ورثته عن جدتي . صندوق يشبهه في الشكل والحجم ولكنه أحلى  
لأنه مرسوم وملون .

أفكر في صورة أبي المثبتة في إطار المرأة المواجهة لسريري وأغمض  
عينى وأحكم الغطاء حول جسمي فأرى نفسي على ظهر سفينة كبيرة بها  
بحارة كثيرون وصناديق ضخمة بعضها من الخشب المحفور وبعضها  
مطعم بالذهب والفضة وصندوقى المزين بالرسوم الملونة والزخارف  
الجميلة . أزوح وأغدو ، أتحدث وأضحك ، تشق السفينة البحر  
الازرق الواسع ثم فجأة تبرق السماء وترعد وينهمر المطر ويعلو الموج  
كالجبال فتتأرجح السفينة وسط الظلام يقطعه هدير البحر الهائج .  
وصيحات الاستغاثة . . أشهق في رعب . . ثم أبتسم وأنا أخطو في  
جزيرة بديعة كلها زهور برية وأشجار عالية tendل منها ثمار المانجو  
الشهية . أتوغل في الجزيرة التي بلا أصوات ، أرى المشاهد الملونة  
واستنشق الروائح الزكية ولا أسمع سوى حفيف الأغصان ووقع قدمي على  
الارض . . أجفل فزعا وقد هبط الليل على النهار فجأة فأظلمت  
الدنيا . كان طائر الرخ قد نزل الجزيرة فاردا جناحيه الهائلين ثم طار  
وأنا أمسك بطرف مخلبه . رأيت الجزيرة كقرش صغير فى المحيط  
وضحك وأنا خائفة . . راح الخوف وبقيت أضحك وأنا فى مدينة  
عجيبة يتحدث أهلها بالمعكوس جملتهم تبدأ من آخرها . . أتصيب  
عرقا وأنا أصعد جبلا شاهقا مغطى بالثلوج وأبلبل شفتى بلعابى أكاد  
أموت عطشا فى الصحراء التى تمتد بامتداد البصر . أرعد خوفا وأنا  
فى الغابة وتكاد ساقاى لا تحملاننى ثم أبتسم ، أضحك وأنا أحيى  
المستقبلين الذين جاءوا الى الشاطئ لتحييتى .

وأعود الى البيت . أجلس الى مكتبى أكتب كل شيء وأرسم كل  
شيء وأودع الاوراق الصندوق الذى يحمل اسمى . أغلقه وأحكم اغلاقه  
بالقفل والمفاتيح . وعندما يأتى الناس لرؤيتى أحكى طويلا وأفتح  
الصندوق وأطلعهم على الصور والنقائس فينبهرون ويقولون خديجة  
أكبر عالمة جغرافيا فى العالم ويكون كلامهم صحيحا لأننى سأعرف كل  
ركن وزاوية من هذه الدنيا تماما كما أعرف البيت الذى أسكن فيه .  
ويكون كل شيء مسجلا بالرسم والكتابة فى الاوراق المحفوظة فى  
الصندوق المعلق بقفل لا يحمل مفاتيحه الا أنا .

\*\*\*

افتتحت ورشة نجارة صغيرة فى الشارع الجانبى الذى أطل عليه

من نافذة غرفتي . تابعت النجار وصبيه وهما يقطعان الواح الخشب  
بالمشار وينعمانها بالفارة ويعسدان الغراء على السار ويدفان الواح  
المسامير . بعد أيام من المرافية نزلت الى المحل وعرضت أن أشاركهما  
العمل . ضاقت عيننا النجار الصغيرتان حتى أصبحنا شرطيين في الثلث  
الأعلى من وجهه المستطيل وضحك ، ضحك بصوت أجش عال أخافني  
وجعلني أتساءل ان كان الرجل طيبا أم شريرا .

— يا ابنتي لا يمكن أن تكوني صبية في المحل لانه — لا مؤاخذه —  
النجارة ليست شغلة نسوان . أعرف ، أنت تريدنيها هواية لكن  
بالنسبة لي والواد محمد ( أشار لصبي تلمع عيناه في العتمة النسبية  
للمحل كعيني قط عسليتين ) النجارة هي رزقنا وأكل عيشنا .

وعاد النجار للاهتمام بلوح الخشب الذي كان ينشره وهو يواصل  
الضحك . رجعت الى البيت وأنا أجر قدمي أشعر بالخيبة ولا أفهم لماذا  
ضحك مني النجار . ربما لم يقصد سوءا حين ضحك ، ربما حين يتعرف  
على ويعرفني ويجد أنني ذكية وسريعة التعلم يرضى عني ويحبني . وهذا  
الولد محمد لم يكف عن مراقبتي وأنا أتحدث مع النجار . كان يلبس  
هذاء من المطاط وفانلة صفراء قديمة وبنطلونا رماديا مهترئا فلماذا  
يقبله النجار صبييا ولا يقبلني ؟ قال انها ليست شغلة نسوان فلماذا  
لا تكون كذلك ١٩

أقضى الساعات في مراقبة النجار من النافذة . أرفض أن العب مع  
أحمد ومجدي ولا يشغلني الا اقناع النجار بالعمل معه . أحكي لأبي  
فتقول أمي أنني فقدت عقلي ولكني ألح ، كل يوم أتحدث مع أبي في  
الموضوع وأطلب منه أن يقنع النجار حتى كان ذلك اليوم الذي قال أبي  
لأمي أنه تحدث مع عم عبد الله النجار فوجده رجلا عاقلا وطيبا وأنه  
لا داعي للقلق . ولم أنتظر لاسمع باقي الكلام بل ركضت الى  
الشارع ولم أتوقف الا أمام باب النجار الذي نظر الى بدهشة كأنه لم  
يعه يدكرني وعندما ذكرته بنفسى ابتسم وطلب مني أن أجلس على  
كرسي وألاحظ ما يقوم به هو « والواد محمد لانه أسطى وشاطر ! »  
أغاظتني الملحوظة لكنني قلت لنفسى ان الصبر طيب وقبليت بالجلوس  
على الكرسي والمراقبة ولو مؤقتا حتى يقتنع عم عبد الله بأنني أصلح .  
وهذا الولد محمد لا يسأدلني أى كلام كأنني غير موجودة . انه ولد



• مرور والفسرور عيبا خطير وهذا ما أكدته مدرسة الحساب في المدرسة •

بعد أسبوع من الجلسوس على الكرسي سمح لي عم عبد الله بمساعدته : أقلب الغراء ، أمسك لوحا من الخشب ، أدق مسمارا • تعلمت منه أشياء عديدة علمت بعضها لاحمد ومجدي وفي البيت استطعت اصلاح مقعد كسر أحد قوائمه حتى أن أمي شهدت لي بالمهارة •

محمد لم يعد يتجاهلني وعندما أستفهم منه عن شيء يفهمه لي • انه ليس مغرورا أنه لطيف وذكي لكنه لا يعرف القراءة والكتابة • عرضت عليه أن أعلمه فقال : « ان شاء الله » ولم أفهم ان كانت اجابته تعني الرفض أو القبول • كررت عرضي فقال على استحياء :  
- كيف ومتى ؟

- هنا في المحل ، كل يوم أعلمك ساعة •  
- مستحيل لأن الاسطى عبد الله سيقول أننا نضيع الوقت وأنه لايدفع لي أجرى كي أجلس وأقرأ في الكتب •  
- اذن كل يوم جمعة تأتي لزيارتنا نتغدى معا وأعطيك درسين ، درس قبل الغداء ودرس بعده ، ما رأيك ؟  
- صعب •  
- لماذا ؟

تلعنم وكأنه غير موافق ولكنني أقنعتة فوافق •  
فاجأني غضب أمي حين أخبرتها بدعوتي لمحمد • قالت انني بلا عقل ولا أعمل حسابا لشيء • أمي تتصرف بشكل غريب لا يمكن فهمه وهي تلقى بالاوامر والنواهي بلا منطق • جلست أنتظر أبي لكي نتفاهم كما يليق بالعلاء والاذكياء • فاجأني أبي بتصرف أغرب من تصرف أمي : رفض رفضا قاطعا ثم أضاف :

- لو سمعت أنك نزلت عند النجار ساكسر رجلك ، مفهوم ؟!  
تركنتي دون أدنى احتمال في استكمال النقاش • أبي وأمي يفرضان رأيهما بلا وجه حق ، وبدون منطق فلماذا ؟! دخلت الحمام وجلست على حافة البانيو • بابا ليس غيبا ، أنا متأكدة ، فهل هو اذن ظالم ومستبد ؟ وما الذي سيقوله محمد ؟ سيقول خديجة كذابة وكلامها كلام عيال • ما العمل اذن ؟ لا أعرف ما العمل • فابكي قهرا •

بعد يومين خرجت الى الشارع وانحرفت مع سور الحديقة يمينا  
الى الشارع الجانبى . ذهبت أولا الى البقال واشترت بكل ما معى من  
نقود لوحا من الشيكولاته ثم اتجهت الى محل عم عبد الله .  
- أشكرك يا عم عبد الله على الاشياء المفيدة التى علمتها لى . للاسف  
لن أستطيع العمل معك لأن أبى يريد أن أساعده فى بعض الاعمال .  
سلمت على عم عبد الله ولم أنظر الى محمد الذى كنت أشعر بهمينه  
تتطلعان الى . وضعت لوح الشيكولاته أمامه وركضت عائده الى  
البيت .

قالت جدتي : « البنات كشجر الموز » فهزت أمي رأسها موافقة . ولم أفهم ما معنى كلام جدتي ولا سبب موافقة أمي على ما قالت . كانت جدتي لأمي امرأة صغيرة الحجم كثيفة الوجه ، لها عينان ضيقتان وجبهة ضيقة ووجه مجعد . وكانت تتحدث همسا وبصوت مبجوح فتذكرني بالسحالي . ولم أكن أطيعها ولا أطيع تعليقات أمي المستمرة : « ماذا تقول جدتك لو رأتك بهذا الشكل ؟ » « ماذا تفعل جدتك لو سمعت بهذا الموضوع ؟ » تعليقات لا تنتهي تجعل جدتي حاضرة بيننا في كل وقت رغم أنها لم تكن تأتي من البلد لزيارتنا إلا مرة واحدة في السنة لا تكل فيها من الترحم على أيام زمان .

تزجرني أمي باستمرار وتكرر : « الولد أرحم » ولا أعرف لماذا تقول ذلك فأنا أكثر تفوقا من أحمد ، أحصل على الدرجات النهائية في معظم المواد وأضمن حصول مدرستي على كأس المنطقة في كرة اليد وأنوي أن أصبح طبيبة وأعرف أنني سأتمكن من ذلك . ولكن أمي تقول : « الولد أرحم » وتنحاز لأحمد بلا وجه حق . تقول : « أنه أخوك ويريد حمايتك » فهل أنا كسيحة أو عمياء لكي يحميني . أنا أكبر منه وأفضل منه . قالت لي إحدى زميلاتي في المدرسة : « هكذا الامهات يفضلن الاولاد وينحزن لهم ، ويتعاملن معنا بقسوة غير مفهومة » فهل هذا صحيح ؟ يبدو صحيحا ، فلماذا ؟!

ليست الامور بيني وبين أمي على مايرام . شيء ما يعقدها ويعرقل سلاستها ، قلت لامي وأنا أضحك : « التروس مزرجنة وهي بحاجة الى تزييت » ففضبت وتصورت أنني أهينها وأنا أحبها فكيف أهينها ؟ هي التي تهينني باستمرار وتكرر أن الولد أرحم !

- ماما قولي لأحمد أن يتركني وشائي .

- يا ماما كانت تطل من النافذة والولد الذي سكن مؤخرا في عترة الجيران لا يرفع عينيه عنها . نهني مجدى أن الولد وقح ولا هم له سوى مشاغلة البنات . قلت يا خديجة ادخلي ! رفضت فجذبته من

صفيرتها واغلقت النافذة ، هل أخطأت ؟!

صرخت فيه :

- طبعا أخطأت !

وانسحبت الى غرفتي وطرقت الباب عامدة .

تشكوني أمي لابي ، تقول أن جدران البيت كانت ستنهار من عنف  
طرفة الباب . يقول أبي :

- غدا تكبر وتعقل .

وتقول أمي :

- لن تهدأ وتعقل الا عندما نزوجها .

أمي منحازة الى أحمد ، كلام زميلتي صحيح !

\*\*\*

قالت لي أمي وهي تضحك :

- مبروك ياخديجة ، جاءك عريس .

نظرت اليها مستفهمة ، قالت :

- شاب ممتاز والده من الاعيان يملك أطيئسانا في المنيا . وأمه

رحمها الله ابنة عمه زوج زكية ابنة خالتي . يعنى ناس من ثوبنا نعرف

أصلهم وفصلهم . والشاب عنده ٣٠ سنة وجراح ودرس في أوروبا

وشكله مثل القمر ، بصي !

وأبرزت لي أمي صورة لشاب له وجه مستدير وشعر أملس وشارب

صغير معننى به . كان وسيما . قلت وأنا أعيد لها الصورة :

- لا أريد الزواج .

- هذا هو البطر بعينه . لقد جاءنا السعد حتى بابنا فهل نتبغدد

ثم نعود ونندم ؟

- ولكني أريد أن ادخل كلية الطب ، وأنت تعرفين .

ضحكت أمي وربتت على كتفي :

- نحن لا نناقش دخول الجامعة . نحن نتحدث عن العريس .

- وماذا قال أبي ؟

- قال ان الشاب لقطه !

- ماذا قال عن دراستي ؟

- لم يقل شيئا !

قالت أمي تستعجلني :

- تأخرنا .

— خمس دقائق وننتهى .

وقفت نراقبنا ونحن نلعب فى الحديقة . وحدى كنت اكون فريقا  
فى مواجهة أحمد ومجدى وكنا نلعب كرة قدم . ضحكتم أوى وهى  
تتابع كيف أراوغهما وأركض بالكرة حتى أصل المرمى . صويت  
وانتهت المباراة .

قلت لأحمد وأنا أطلع له لسانى :

— عندك حارس مرمى وأنا وحدى ومع ذلك غلبتك ٢/صفر تعيش  
وتأخذ غيرها . بنا ياماما .

اقترحت أوى أن أغير ملابسى ولكنى قلت أن ملابسى نظيفة « بدلى  
الحذاء على الأقل » ولكنى كررت انه لا داعى ونزلت بصحبتى انتعل  
حذاء المطاط ذا الرباط وكنا نقصد حلاق السيدات .

دفعت أوى الباب الزجاجى ودخلنا فلفحت وجهى الحرارة رغم  
المراوح الكهربائية الكبيرة المثبتة فى السقف التى رأيتها وسمعت  
أزيرها . كانت المرة الاولى التى تصحبنى فيها أوى . جلست بعينى فى  
المكان الذى كان صاحبها ومكتظا بالنساء : نساء أسلمن رؤوسهن لرجال  
يقصون الشعر ، يلفونه على لفافات أسطوانية صغيرة ، يفردونه  
بالمكاوى الساخنة ، يصففونه ، نساء مددن أيدهن الى فتيات تشذب  
لهن أطراف اليبدين ويطيننها بطلاء أحمر نارى ، نساء غمسن أقدامهن  
المارية فى أطباق بلاستيك صغيرة مملوءة بالماء . العاملات والعاملون  
منهمكون فى الشعر والايدي والاقدام والنساء يتأملن أنفسهن فى  
المرايا : المرايا الطويلة التى ترى فيها المرأة نفسها كاملة وبالحجم  
الطبيعى ، والمرايا النصفية التى تجلس الواحدة أمامها فتبصر نصفها  
الاعلى ، والمرايا متوسطة الحجم فى الاطر الخشبية يمسك بها المصفف  
فى مواجهة مرآة أخرى فترى الجالسة شكل رأسها من الخلف ،  
والمرايا الصغيرة بحجم الكف لتأمل تفاصيل الوجه وتسوية الحاجبين .

— تفضل .

أوضحت أوى أن الشاب سيفسل لى شعرى .

— أحل الضفائر ؟

— هو سيحلها .

حل لى الشاب ضفيرتى وقادنى الى مقعد جلدى وثير ورايه حوض  
معدنى . أحاط كتفى بمنسفة ثم أمال رأسى للخلف . أسلمت له  
نفسى . غسل شعرى بالماء الساخن وصابون سائل أعجبتنى رائحته



النفاذة • عندما انتهى أتى بمنشفة أخرى ولف بها شعري المبلل •  
 قال الشاب مشيراً الى مقعد آخر : « تفضلي » •  
 جلست أمام مرآة نصفية كبيرة • جاء شاب آخر وسحب المنشفة  
 من على رأسي فسقط شعري الطويل على كتفي كثيفاً ومبللاً : استغرب  
 شكلي لانني عندما أغسل شعري أخرج من الحمام مباشرة الى أمي  
 وأجلس عند قدميها فتقوم هي بتصفيفه وتصفيره • الآن كنت أطلع  
 وجهي في المرآة ومن خلفه شاب متأنق يحيط بمعصمه بسلسلة فضية •  
 له لحية وشارب جعلاه يبدو كرسام إيطالي •

— قص ١

قالت أمي للشاب • سمعت صوتها دون أن أراها •  
 أمسك الشاب بالمقص وأداره في شعري • يخفي النصل اللامع  
 ثم يظهر فتتساقط الخصلات السوداء على الأرض • أراقب كل شيء  
 في المرأة • يمسك الشاب بالمشط يفضل خصلة يمسك بها بيده  
 اليسرى بين الخنصر والوسطى وييده اليمنى التي تمسك بالمقص •  
 يقص الخصلات هكذا خصلة من بعد خصلة حتى أصبح شعري يغطي  
 أذني بالكاد والخصلات المقصوفة تفرش الأرض تحت قدمي • جاء  
 ولد بسكنسة لها يد طويلة وأخذ يكنسها •

لف الشاب خصلات شعري على لفافات صغيرة ثم أتى بمندبل من  
 الشبك وقطعتني قطن • وضع على كل اذن قطعة ثم ربط الرأس  
 المتضخم باللفافات بالمندبل • كان منظرى الآن غريباً يبعث على الضحك  
 ولكنني لم أضحك •

انتقلت الى مقعد آخر تعلوه مجففة للشعر • دمسست رأسي داخلها  
 وأدار الشاب المفتاح فاندفع الهواء الساخن • عندما جف شعري  
 انتقلت الى المقعد الاول • فك لي الشاب شعري ثم أشعل موقداً غازياً  
 رفيعاً ووضع عليه مكواة الشعر حتى حمى حديدتها فأمسكها وراح  
 يحركها حركة دائرية في الهواء فماذا لو طارت هذه المكواة في وجهي  
 الآن ؟ أمسك بخصلة شعر وقبض عليها بين القضيبين المحميين فتحول  
 قلقي الى انزعاج وضيق • درت برأسي أبحت عن أمي فطلب مني الشاب  
 أن أثبت في مكاني لكي يتمكن من أداء عمله • سيستحرق هذه المكواة  
 شعري ولا أدري أين ذهبت أمي لأقول لها ذلك •

— هل هذه المكواة ضرورية ؟

— شعرك خشن وكثيف • ستجعله المكواة ناعماً الحرير •

... ولكنها ستحرق شعري .

ضحك الشاب وهو يعيد المكواة الى الموقد لتزداد سخونة !

عندما انتهى من تصفيف شعري قمت لاعود مع أمي الى البيت .  
البيت على نفسي نظرة في المرأة الكبيرة . أحمد ومجدي لن يتعرفا علي ،  
وبل ساعتين تركتهما وشعري مفروق ومجدول في ضفيريّتين غليظتين  
والان أعود اليهما وشعري ينسدل مالنسا يغطي أذني بالكاد وخصلة  
امامية تنزل على وجنتي اليمنى وتغطي ، لو ملئت برأسي قليلا ، نصف  
وجهي الايمن ، تماما كالمثلثات . ابتسمت للفكرة .

قالت أمي ترد على ابتسامتي :

— لو سمعت كلامي وغيّرت ملابسك لبدوت عروسا حقيقية ولكن  
هذا الحذاء الكاوتش ... !

في البيت تجملت وتعطرت وارتديت ثوبا من الحرير الوردى  
وحذاء جديدا أبيض له كعب مدبب . وألبستني أمي عقدا من اللؤلؤ  
وفرط صغيرا من الماس وزينت وجهي بالمساحيق . وكان أحمد ومجدي  
يغفان خارج الحجرة ينتظران أن يسمح لهما بالدخول . ولما دخلا كدت  
أنفجر ضاحكة فقد وقفا متلاصقين يحدثان في مستديري العيون ،  
لاغري اليم ، معقودي اللسان . وعندما دخل أبي الحجرة ضحك بصوت  
هال فضحكا معه قلت : « بابا يضحك عليكم فلماذا تضحكان ؟ »  
ولكنهما واصلوا الضحك حتى استلقى أحمد على ظهره واستند مجدي على  
الباب لكي لا يسقط من شدة الضحك . فبدأت أنا أيضا أضحك وقالت  
أمي « الله يجازي شيطانكم يا أولاد » ثم وهي تغالب الضحك « اللهم  
اجعله خيرا » .

كنت أضحك مع أحمد ومجدي ولكني كنت متوجسة . الشاب  
وسيم ويبدو ذكيا ولكنه عريس . سيأتي ويجلس مرتبكا وأجلس أنا  
أمامه مرتبة ويمر الوقت ثقيلًا تقطعه أمي بكلام لا معنى له مداراة  
للحرج ، هذا ما يحدث دائما في الافلام .

لم يحدث ... لم يكن العريس مرتبكا ولا محرجا بل كان يتحدث  
بطاقة وآلفة ويتصرف بشكل طبيعي كأننا نعرفه ويعرفنا . ظلمته  
الصورة لانه كان أحلى : شعره كستنائي فاتح أشقر تقريبا ، وناغم  
كالحرير وعيناه خضراوان تحيط بهما رموش طويلة ويعلوهما حاجبان  
كثيفان يكادان يلتقيان فوق أنف مستقيم وبشفته امتلاء طفيف وله  
شارب أشقر صغير معتنى به ، كان وسيما كنجم سينمائي وأنيقا كنجم

سينمائي أيضا يلبس بدلة من الكتان الابيض وحذاء ابيض وربطة عنق  
من الحرير الكحلي وكان في بنصره الايسر خاتم ذهبي ينتهي من أعلى  
بمسطح بيضاوي عليه نقش لم أتمكن من التقاطه .  
وكان كمال قد أتى مع أبيه : رجل فارغ الطول يميل الى السمنة  
يميزه شعر وشارب فضيان . قال :

- عندما نجح كمال في البكالوريا قلت لنفسى « يا صفتوت تعليم  
ابنك خير استثمار » وأرسلته الى انجلترا ليدرس الطب هناك .  
وعندما تخرج وقال أعود قلت له أبقى حتى تتخصص وتصير جراحا  
ماهرا وقديرا . تسع سنوات ، قال والد العزيس موجهها كلامه الى  
أمى : تسع سنوات وكمال يدرس فى انجلترا . لم يخيب ظنى أبدا  
سافر ناجحا وعاد ناجحا . عندها قلت له يا كمال حان وقت تزويجك  
والا ...

قاطعته كمال ضاحكا :

- والا فاتك القطار ولم تجد من ترضى بك !

سأله أحمد :

- انجلترا جميلة يا دكتور كمال ؟

- طبعا جميلة . حضارة وتقدم وحرية ... ولكنى أحب باريس

أكثر من لندن .

سأله أحمد مبهورا :

- وهل زرت باريس أيضا ؟

- زرت لندن وباريس وروما وفيينا ومدنا أخرى كثيرة .

كانت أمى تصب الشاي وأنا أساعدها فى تقديمه وكمال يواصل

- لندن كامرأة كئيبة تجثم على النفس بغيومها وأمطارها . أما

باريس فبهيجة كخديجة هذا المساء .

شعرت بالدم يصعد الى وجنتى وضحك والد كمال وأبى وأمى فزاد

ارتباكى وتشاغلتي بوضع الحلوى فى الصحنون .

- روما ترتبط فى النفس بالدفء والحرارة . عندما أصلها أشعر

أننى على أعتاب مصر . اشتري شقة بطيخ من بائع متجول ، أثرثر مع

جارى فى الاتوبيس ..

سأله :

- ولماذا لا تكتب عن رحلاتك فى كتاب ؟

- لأنى جراح ولا أتمكن عملا آخر - ثم أضاف وهو يضحك ويمسك

يديه - ألا ترين أن أصابعى أصابع جراح ؟

لم أر في أصابعه شيئا استثنائيا وكدت أسأله ما الذى يميز أصابع الجراح ولكن غلبنى الحياء .

قالت عمتى كريمة التى جاءت من البلد خصيصا لتبارك بالخطبة انه عريس السعد وذكرتنى بحكاية الشاطر حسن الذى يحمل عروسه على حصانه الابيض ولكنى تذكرت البجعة فى الحكايات الاجنبية التى نحلق فوق المدينة تحمل فى منديلها طفلا وليدا . سيحملنى كمال فى دبله ويطير فأرى مثله أشياء كثيرة ، وأرى بلادا بعيدة ، وأصير منه أحدث بطلاقة وثقة وسط اعجاب الآخرين وانسحارهم .

ياخذنى كمال الى النادي ويعلمنى « التنس » . تطير الكرة بيننا ونطير لنلحق بها ، يمينا ويسارا ، للامام وللخلف . تأتى جدتى لأمى لزيارتنا وتعرض لأنها لم تسمع من قبل عن عروسين يلعبان الكرة وتعرض على ملابس التنس التى اشتراها لى كمال : جولة قصيرة بيضاء وبلوزة قطنية بلا أكمام تقول انه ملابس غير محتشم ولا يصح فتجيبها أمى : « انه خطيبها وسيعقد عليها الشهر القادم فتصبح زوجته يفعل بها مايشاء ! » تمتعض جدتى . ونحن نركض ، نطير حتى تنقطع أنفاسنا فنجلس لنشرب عصير الليمون ويمسك كمال بيدي يقبلها فتعلو أنفاسى وتهبط ولا أدري هل هو الركض أم هى قبلة كمال أشعر بها حارقة على أناملى .

نركض .. نطير ، والايام أيضا . أترزين وألبس ثوب الزفاف الابيض ويرتدى كمال بدلة العريس السوداء ويتعطر . نسير بين صفين من البنات يحملن الشموع المضاءة . تتمايل أمامنا الراقصة على دقات الدفوف ورنات الزغاريد وتنثر أمى وعمتى بكرة الملح المخلوط برقائق ذهبية و عملات فضية ، ويلتقط المصور الصور .

نركض ، نسير . تحملنا الطائرة الى مدينة جنيف . تتهادى بنا المركب فى البحيرة الهادئة ، يطوى بنا القطار التلال الخضراء ، ياخذنا من المدينة ثم يردنا الى ضفاف « ليمان » والعشب المشذب وأسراب النوارس . نضحك ونلعب ونمارس الحب والسياحة . يشتري لى كمال طائرة من ورق ، كبيرة وحمراء ومهدبة بورق ملون ، أطلق لها الخيط وأتابعها وهى تملو فى السماء الصافية . ينتهى الخيط ، أتدبث به ولكن الهواء يجذب الطائرة فأركض واضحك . تفلت الطائرة من يدي فأتابعها وهى ترتفع فى السماء وتبتعد .

نتناول العشاء فى مطعم صغير على ضوء الشموع ثم نرقص على

عزف ناعم ينبعث من بيانو • أترك كمال يحركنى كما يشـهـنى •  
أضحك أقول :

— أستطيع أن أقف على رأسى !

— تزوجت طفلة وكان ما كان !

فأشـب على أطراف أصابعى وأقبله فى فمه قبلـة طويـلة ، هكذا فى  
المكان العام • يضحك •

— تزوجت امرأة — طفلة !

نطير الى بيتنا فى القاهرة ، شقة جديدة واسعة تطل على ميدان  
مصطفى كامل بقلب المدينة • يلتقط لى كمال الصور : فى الصالون ، فى  
كامل زينتى ، فى السرير بملابس النوم ، أمام المرأة وأنا أصف  
شعرى ، فى المطبخ وأنا أصنع له القهوة ، فى الحمام وأنا عارية •  
أصرخ : « يامجنون ! » فيفتح آلة التصوير قاصدا اتلاف الفيلم « رأيت  
كل الصور الرائعة ، وهذا يكفى ! » •

تنتفخ بطنى ويمتلئ ثدياى وتورم ساقاى وتثقل حركتى •

— الأسبوع القادم نحتفل بعيد ميلادك السابع عشر •

— بهذا الشكل ؟

— أنت رائعة •• بهذا الشكل !

أتأمل نفسى فى المرأة ما الذى يجعل كمال يقول أننى رائعة بهذا

الشكل ؟ أبتسم وأنا أفكر أن الحب أعمى !

أمى تشتغل السترات الصوفية وأنا أنتقى ملابس المولود والمهد  
المبطن بالحرير « بنت ! » • سماها كمال زينب • بعدها بستنتين جاءت  
البنـت الثانية سميتها أنا سوسن • قال كمال « الحمد لله •• يكفى »  
ولكنى كنت أريد الولد •• وجاء سعد بعد ذلك بأربع سنوات •

هل كنت أركض أم كانت السنوات هى التى تطير ؟ الخطبة وشهر  
العسل وشهور الزواج الاولى والسنوات التى تلت • أكل وأشرب  
وانام وأصحو أحمل وألد تحيط بى ألفة رقاقة يملؤها كمال بصوته  
المميز وتعليقاته الذكية ورائحة العطر الذى يستخدمه وطريقته فى دق  
جرس الباب عند عودته من العمل • وكنت وأنا فى البيت أطمم  
الصفار وأحميهم وأعلمهم المشى والكلام أطلع اليه وأتبعه بتلقائية ويسر  
فى الطرقات التى يختارها ويحددها • كان رائعا ، وكنت أحبه •



أدوت المفتاح في الباب ودفعته فانفتح ، دخلت . غسلت يدي وسنعت لنفسى فنجان قهوة . حملت الدلة النحاسية الصغيرة والفنجال وكوب الماء على صينية فضية الى الصالة حيث جلست وأشعلت سيجارة « ثلاثة عشر عاما مرت ، فكيف مرت ؟ » فاجاتنى العبارة التى طفت الى وعيى فجأة كأن شخصا آخر نطق بها وسمعتها فاندھشت . كان البيت هادئا وساكنا ولم يتغير أى شىء فيه تماما كما كان فى ذلك اليوم الذى دخلناه ، انا وكمال للمرة الاولى ، ونحن زوجان جديدان عائدان للتو من رحلة شهر العسل .

ساعتها انفتح الباب على السكون والاثاث ، المرأة فى المدخل متوسطة الحجم يعلو رفها حامل من الارابيسك عليه نسخة مفتوحة من القرآن . ويغضى المدخل للبهو الفسيح تغطى أرضه ثلاث سجاجيد عجمية يشغله ثلاثة أطقم متباينة من المقاعد ، طقم « جوبلان » طرزت عليه يد شاغله مشاهد رعوية لامراء واميرات اوروبيين ، وطقم لويس الثالث عشر مكون من مقعدين وأريكة ومنضدة خشبية ذات اطار محفور ومذهب ، وطقم عربى من الخشب المطعم بالصدف . الصور فى الأطر الذهبية معلقة على الحائط ، والمنافض الببلورية وعلب السجائر المصنوعة من الفضة موضوعة على المناضد الخشبية الصغيرة فى الأركان بين المقاعد .

لم يتغير فى المكان شىء ، يقولون : « خديجة سيدة بيت من الطراز الأول . بيتها دائما نظيف وأولادها كالزهور » البيت مرتب كالعتاد ولكنه اليوم موحش ، لسعد وحشة .

انه اليوم الاول فى حياته المدرسية . أوصلته وعدت . لم يك كاولئك الاطفال البلهاء الذين يملكهم الدعر لدخول المدرسة . كان مقبلا ومنشراحا وجميلا كوردة متفتحة فى القميص الابيض والبنطلون الرمادى وربطة العنق الكحلية وشعره الاملس مفروق من

الجنب ومصفف بناية ، قبلته ولوحت له بيدي قابتسم ولوح لي بيده وذهبت .

دق جرس الباب فقامت لافتح للخادمة . بعدها جاء الطباخ فأعطيته التعليمات الخاصة بما سنتناوله على الفداء . تصفحت الجرائد وقرأت الصفحة الأخيرة وحظك اليوم وصفحة الوفيات .. حلت الكلمات المتقاطعة ثم لم أجد ما أفعله فذهبت الى الحلاق لتصفيف شعري .

أوقفت سيارتي أمام محل الحلاق ، نزلت ودخلت . قسسل لي الولد شعري ثم انتقلت الى مقعد آخر أمام المرأة وقام المصفف بلفه وعندما انتهى صحنى الى محففة للشعر دسست فيها راسي وامسكت بمجلة مصورة رحت أتصفحها .

الأولاد يكبرون ، وهاهو سعد يدخل المدرسة وزينب بلغت قبل ان تكمل الثانية عشرة ، انها تنمو بسرعة مذهشة ، بعد عام أو عامين ستفوقنى طولا ... وسوسن ايضا تكبر بسرعة ليس جسمها فقط الذى يتغير يوما بعد يوم بل عقلها ايضا . تقرأ بلا انقطاع وعندما ترفع عينها عن الكتاب لا يسمع المرء منها الا كلمة « لا » انها عنيدة والكتب تغذى عنادها . أشكوها لابيها يقول : « هكذا الاطفال فى هذه السن يريدون تأكيد شخصيتهم » ولماذا سوسن هى التى ترغب فى تأكيد شخصيتها وليست زينب وهى الاكبر ؟! سوسن عنيدة وأبوها يفسدها بالتدليل ، يفسدهم كلهم وعلى انا ان آمر وانهى وأعاقب وأحذر وأوجه .. على ان أربى بمفردى وهو قائب ، مشغول ، فى الصباح فى المساء فى الليل دائما مشغول . يطلبونه فى التليفون بلا انقطاع يقول « غير موجود » وعندما يكون فى البيت ويرد يتحدث ثم يضع السماعة ويقول : « آسف ياخديجة لدى عمل ، لابد ان اذهب ! » حتى الاجازات القصيرة يفزوها اصدقاءه وزوجاتهم اللاتي لا يخفين اعجابهن به ويحيطون به كالذباب . « تعالى ياوالد خفض حرارة هذا السيشار سيحرق راسي ! » قالت له باكمال : الامور هكذا لم تعد محتملة . لقد قضيت السنوات الاخيرة انتظر ، انتظر قدومك للفداء ، انتظر قدومك للمساء ، انتظر عودتك فى الليل متأخرا .. فقط انتظر ! .. قال « سامحيني ياخديجة ، لم اقصد أبدا الا سعادتك » ووعد ان نذهب معا لقضاء اجازة « فى الاسكندرية ؟ » « اجازة فى لبنان ،

هديتي لك بمناسبة عيد ميلادك الثلاثين » ولكنى لا أريد أن أبلغ  
الثلاثين ! » رفعت المحففة عن شعرى وتحسسته كان قد جف  
تماما فقامت وجلست أمام المرأة لكي يصفف لى الشاب شعرى .  
هتف أحد أصدقاء كمال حين عرف أن لى ثلاثة أولاد « لا اصدق ! »  
ضحكت وقالت « عليك أن تصدق ! » القيت نظرة أخيرة على المرأة ،  
كان الشاب قد صفف لى شعرى بشكل جميل ، شكرته وغادرت  
المحل وأنا أفكر أننى أبدو حتى وأنا على أبواب الثلاثين صغيرة  
وجميلة .

مساء الخميس كنا ننتظر ضيوفا على العشاء ربت كل شىء  
قبلها بيومين ، أعطيت قائمة الطعام للطباخ والمال اللازم للشراء .  
أوصيت على زهور ، أخرجت الفضية وأكواب « الكريستال » وطقم  
الاطباق « الليموج » الفرنسى .

الخميس عصرا لم أتم بل ذهبت الى الحلاق ، صففت شعرى  
وعدت . دخلت المطبخ وتأكدت من سير الأمور فيه . كان الطباخ  
- كعادته أيام الولايم - قد أحضر شابين أسمرين لمساعدته . وكان  
لثلاثتهم منهمكين فى العمل وسط البخار المنبعث من الحلل والصوانى ،  
فوق الموقد وفى داخله .

تركت المطبخ . وذهبت الى حجرة الأولاد . كانت زينب وسوسن  
جالستين كل الى مكتبها تؤديان واجبهما المدرسى اما سعد فكان  
منهما فى اللعب بقطاره الكهربائى . سألت البنيتين متى تنتهيان  
فأجابت زينب أن امامها نصف ساعة أخرى . أما سوسن فأعلنت  
تدميرها من الواجبات التى لا معنى لها سوى تمذيب التلاميذ  
« ويا ماما عندما اكبر ... » قاطعتها وطلبت منها أن تكف عن  
« الفلسفة » وتكمل واجبها . وأكدت على زينب أن تفصل بسعد  
يديه وقمه بعد العشاء وأن تلبسه البيجامة وتضعه فى السرير .

كالعتاد وصل كمال متأخرا وتمتم معتذرا وهرولا ليفتسل ويغير  
ملابسه ثم امتلا البيت بالضيوف وكاتوا جميعا من أصدقاء كمال  
وزوجاتهم .

للشهرات فى بيتنا مسارها المعتاد . حتى وأن جلس الضيوف  
مشتارين ؟ تلقائيا وبعد وقت قصير يفصل الرجال ويتحدثون معا  
فى الموضوعين الأثيرين لديهم : الطب والسياسة . أما النساء  
فيختلن لبتها من آخر الأخبار : « فلان برافق قلانة . » ، « زوجة  
الدكتور علان طلبت الطلاق من زوجها عندما عرفت بأمر زوجته

الأخرى » ، « فلانة مهتمة بفلان وتتبعه كظله » . يتداخل كلامهن عن الناس مع آخر الطرائف والنوادر الصادرة عن أولادهن . والتي تنم دائما عن ذكاء الأولاد وتميزهم ، يتفاخرون بأولادهن كما يتفاخرون برحلاتهن الأوروبية وما حملته من مشتريات وأحيانا يجنح الحديث الى الشكوى من الخدمات اللئيمات .

ولم أكن أجد متعة شخصية في النسيمة ولا في الكلام عن عبقرية أولادى أما الحديث عن الأسفار فلم يكن لدى ما أقوله لأشاركن فيه ، كانت سفرتى الوحيدة هى تلك التى صحبت فيها كمال لقضاء شهر العسل قبل ثلاثة عشر عاما ، بعدها جاء الأولاد وكان كمال يسافر دائما بمفرده .

كنت أجد كلام الرجال أكثر طرافة وإثارة للاهتمام ولكن كان على أن أجامل النساء وأشاركهن الحديث . وكانت واجبات الضيافة بما تمليه على من قيام مستمر للإشراف على تقديم المشروبات واعداد الطعام تكسر شعورى بالملل وتنقلنى من الوقوع فى حرج عدم المشاركة .

طلبت المشروب فجاء أحد الشابين الاسمرين وكان الآن يرتدى بدلة سوداء ، دار بصنيعة من الفضة عليها كؤوس عصر البرتقال . بعته بعينى وعندما انتهى همست له بأن يبلغ الطباخ أن يبدأ فى قرف الطعام بعد ربع ساعة .

كانوا جميعا الآن يرشقون عصر البرتقال وهم ينصتون لحديث كمال عن رحلته الى أمريكا .

— أنها حقيقة رحلة العمر ، كل شيء ، كل شيء فى أمريكا مبهر من ناطحات السحاب الى الجراحات متعددة الطوابق تحت الأرض . ولكن كل هذا فى كفة ومستشفى الدكتور سالىنجر فى كفة . قلت وأنا أضحك :

— منذ عودته وهو لا يتحدث ولا يفكر ولا يحلم الا فى هذا المستشفى ويريد أن يبيع الأرض التى ورثها عن أبيه ليشتري قطعة أرض للبناء هنا فى القاهرة ، أليس هذا تهورا يادكتور سالم ؟ قال الدكتور سالم :

— يا كمال ، بيع أرض أبيك ومجوهرات زوجتك واضف اليهما مدخرات العمر وابن المستشفى . عليه وعمره وجهزه بالاجهزة والاثاث والمرضى والمرضات فيأتى عبد الناصر ويأخذها كلها على الجاهز !

لو أن والد كمال ، رحمه الله ، كان معنا لوجد في الحديث مرضوعه المفضل . كان يحب الجلوس مع الدكتور سالم يمضيان الوقت في انتقاد عبد الناصر وسياساته . بيد أن همسا ثم يعلو صوتهما وهما يسبانه ويدعوان عليه . كان عمى صفوت بعد الأيام في انتظار الخلاص منه يسأل الدكتور سالم « مارايك يادكتور ، ألم يقصر عمره ؟ » فيقول الدكتور « والله يا صفوت بك أرى أن عمره قصر ! » فيقول عمى صفوت « هل تقوم عليه ثورة ؟ » فيبتسم الدكتور سالم وهو يقول « وإن لم تقم ربنا كريم يأخذه ويخلصنا منه ! » كان عمى صفوت بعد الأيام ولكن المسكين توفي ومازال عبد الناصر على حاله قويا ومهيما !

قمت لالقي نظرة على المائدة قبل أن أدمع الضيوف للجلوس . المائدة ممتدة بالأطعمة المتنوعة : الفطائر المحشوة باللحم المفروم ، محشى ورق العنب ، البامية المطبوخة باللحم الضأن ، السلطات : السلطة البلدية ، سلطة « بابا قنوج » ، سلطة الزبادى ، وسلطة السمك بالمايونيز ، اللحوم : شرائح اللحم البقرى المزين بالخس والطماطم وأرباع الدجاج المحمر تحيط بها جبات الباذلة الخضراء ومكعبات الجزر الأصفر . أما أطباق الغرف والشوك والسكاكين والملاعق والقوط البيضاء المنشأة فصفت بنظام على « البوفيه » الصغير كما صفت الأطباق الصغيرة مع الشوك والسكاكين والملاعق الصغيرة المخصصة لكل الفواكه والحلوى بجوار سلة ضخمة تحمل ثمار الخريف : جبات المانجو الخضراء والجوافة عاجية اللون والبلح الزغلول الأحمر . وبجذاء السلة وضعت ثلاثة أطباق كبيرة من الفضة فى أولها كنانة وفى ثانيها بقلادة وفى ثالثها بسبوسة .

درت بعينى فى المكان ، تأكدت من أن كل شيء كما يجب ويليق . وكان الشبان الأسمران يقفان كل فى ركن استعدادا لخدمة الضيوف ازحت الستار الفاصل بين حجرة الطعام والصالون قائلة وأنا ابتسم : تفضلوا !

شيء ما كان بيدي ، أقبض عليه ، افتح قبضتي فجأة فلا أجده .  
 ابكي ، ابحث في كل مكان . هل سرق ؟ من سرقه ؟ هل سقط مني ؟  
 هل تسرب من أصابعي وأنا في غفلة ؟ ومتى تسرب ؟ أستيقظ من  
 نومي فأجد الدموع على وجنتي وانخفاضة في قلبي « اللهم اجعله  
 خيرا ! » انه كابوس ، مجرد كابوس ولكنه يتكرر . أذهب للزيارة  
 أمي وانتظر عودة أبي من عمله حتى أراه بنفسى واطمن . آخذ  
 الأولاد الى الطبيب ليفحصهم فيؤكد لي ان صحتهم ممتازة . ولكن  
 الحلم يتكرر أحدث كمال في الامر فيسألني : « هل يضايقك  
 شيء ؟ » « لا يضايقني شيء ! » ينصحنى الا أسرف في الأكل على  
 العشاء وان آخذ حماما دافئا قبل النوم .

بوقظني كمال من نومي . أسمعهم يقول :

- خديجة ماذا جرى ، تبكين وانت نائمة ؟

استوى جالسة وأسأله :

- كمال ، هل تحب امرأة أخرى ؟

يقول ضاحكا :

- هل الجنون يبدأ بالأحلام ؟

ما الذي كان في يدي ؟ ما الذي يمكن أن يتسرب من بين الأصابع  
 كالماء ؟ أسأل نفسي فيناديني سعد ويطلب مني أن أضعه في الفراش  
 ويلح أن أنمده بجواره حتى ينام فألبى له طلبه . أحيطه بذرأعي  
 وأشعر بجسده الدافئ على صدري . يستغرق الولد في النوم .  
 اسمع انفاسه المنتظمة وأرى حبات العرق على جبينه أقول لنفسى  
 اننى سأراه طبيبا عظيما يملأ الدنيا بنجاحه وضحكاته . أطبع  
 قبلة على وجهه وانتزع نفسي من الفراش .

أصحو مبكرة على غير العادة وأعد الأولاد الإفطار قبل ذهابهم  
 الى المدرسة . أصبحهم حتى الباب وأودعهم كأنهم مسافرون وانتظر  
 عودتهم بلهفة وقلق . كمال ينصحنى الا اترك نفسي للأوهام : « انه  
 مجرد حلم وقد تكونين مرهقة » يقترح أن أسافر الى الاسكندرية

مع الاولاد ما ان ينتهوا من الدراسة » ساستاجر لكم بيتا هنالك  
نضون فيه طوال اشهر الصيف » الصغار سعداء بالفكرة . بعد  
الامتحانات يحملنا كمال بسيارته الى الاسكندرية ويقضي معنا  
هناك يوما واحدا وفي فجر اليوم التالي يغادرننا الى القاهرة .

البيت الذى استأجره لنا كمال يقع فى شارع جانبى هادئ  
لا يبعد كثيرا عن شاطئ البحر وهو بيت من طابق واحد وله شرفة  
واسعة ويحيط به سياج تغطيه شجيرات الياسمين يقوم على خدمتنا  
شاب يشتري المطلوب من السوق قبل مجيئه فى الصباح ثم ياتى  
وينظف البيت وبعد الغداء يذهب . يستيقظ الاولاد مبكرين  
وينتظرون حتى استيقظ ، نتناول افطارنا معا ثم نذهب الى البحر .  
اتركهم يسبحون ويلعبون الكرة . وبينون قصورا فى الرمال وأجلس  
فى شرفة مقهى الشاطئ احتسى القهوة وأدخن وأتصفح الجلات  
واراقب زرقة البحر الممتدة والأمواج وهى تتعاقب ، تملو وترطم  
بالاحجار المكعبة الضخمة التى تحول بينها وبين الشاطئ . أدخن .  
واراقب الرذاذ المتطاير والزبد وانحسار الموج وتملا رائحة البصر  
أنفى وتختلط برائحة القهوة التى احتسيتها .

فى الثانية ظهرا نعود الى البيت نتناول غداءنا ثم نستريح  
قليلًا وفى العصر نتمشى على الكورنيش . وعندما نعود نتناول عشاءنا  
فى الشرفة ثم يذهب الاولاد ليناموا . وأبقى أنا أدخن حتى يقبلنى  
النعاس فأنام . الاولاد سعداء يأكلون كالدئاب ويستمتعون بالبحر  
والشمس ورمال الشاطئ ويقضون الامسيات فى الشرفة يضحكون  
بسبب وبلا سبب . يتبادلون النكت والحكايات ويتغنون فى ابتكار  
الالعب والتسالى . سوسن تقلد مصطفى كامل فى وقفته وحركة  
ذراعه وخطابه وتكرر بحسرة « نسيت أن آتى بطربوش جدى صفوت  
من القاهرة ، حمارة ! » ورقم غياب الطربوش كانت سوسن تقوم  
بدورها المفضل كل ليلة فاضحك وأنا أراها تخطط الكلمات الماثورة  
للزعيم بكلام من عندها طفولى تلقبه بصوت عال ولهجة خطابية .  
أقول لسعد : « وانت ياسعد ماذا تريد أن تكون عندما تكبر ؟ »  
فيجيب بجدية « عسكري مرور » فاضحك « ولماذا عسكري مرور ؟ »  
« لكى أنفخ فى الصفارة فلا تقولوا أسكت وجعت دماغنا ! . »  
فأقول له دون أن اضحك هذه المرة أنه سوف يكون طبيبا كبيرا  
كأبيه . وأسأل « وانت يا زينب ؟ » فلا تمهلها سوسن : « زينب

أختي ستكون أما حليلة ورحيمة وستملأ عليك البيت بالاحقاد  
... ستخلف طفلاً كل تسعة أشهر فيكون في بطنها واحد وعلى  
صدرها واحد وفي يدها واحد وفي ذيلها واحد ، وواحد على السرير  
والجامعة .. « تقاطعها زينب محتجة : « والله أنك سخيفة ! »  
وتجيب سوسن ساخرة : « فعلاً لقد أخطأت ، تصورت زينب حليلة  
مع الصفار ، وهاهي لا تحتملني مع اني اصفر منها ... أقول لكم  
كثرة ! » وتنقل سوسن الحديث الى مساحة أخرى من المنزل  
فيضحكون وأضحك ثم يقولون « تصبحين على خير ياماما » ويذهبون  
لنوم .

أبقى في الشرفة وحدى ويقلب الصمت على المكان يؤكد صوت  
انكسار الموج على الصخور الهائلة وصرير حشرة ليلية ... لا شيء  
... يتقدم الليل .. ما الذي يستر من بين أصابع اليدين كأنه  
الماء ؟ !



تمر الايام تجرى تقطر في ذيلها الاسابيع والشهور . ولم تكن الشعرة البيضاء في مفرقى التى فاجأتني ونزعتهما هى وحدها التى دفعت بالفكرة الى خاطرى ولكنهم الاولاد الذين اراهم يكبرون كل ساعة . قالت عمى كريمة عندما جاءت من البلد لزيارتنا معلقة على جسد زينب النامى « لقد خرطها خراط البنات » وضحكت نظرت الى زينب فأدهشنى تكور ثدييها واستدارة ردفها ، رأيتها امرأة صغيرة امام عيني ، هكذا بسرعة ! اجتاحنى شعور كأنه قلق او رهبة او ضيق او ربما خوف معجون بفرح . لا يكبر جسد سوسن بنفس السرعة عقلها هو الذى يكبر وعنادها انها عنييدة صاخبة متمردة ومتبرمة بداع وبلا داع قالت لابيها انها تريد دراجة فاجابها باستغراب: « وأين تركبتها ؟ مثل الناس ، فى الشارع ! » فقال لها ابوها انها بلا عقل : « اننا نسكن فى وسط المدينة وسيل السيارات لا ينقطع فهل تركبين دراجتك فى ميدان مصطفى كامل أم فى شارع قصر النيل أم تتنزهين بها فى ميدان العتبة ؟ » قالت « اذن اشتركو لنا فى ناد ! » .

تلقت منها سعد وزينب الفكرة وأخذا يلحان معها حتى استجاب ابوهم لطلبهم .

أيام العطلات أخذ الاولاد الى النادى ، تلتقى زينب بصديقاتها وتركب سوسن دراجتها ويلعب سعد فى حديقة الاطفال اما انا فأجلس وحدى أو مع آخرين عندما يصبحنا كمال يصبح اليوم مختلفا فتعشى معا ، نتحدث ، نحتسى القهوة وندخن ونضحك ، اشعر بالسعادة ولكن كمال نادرا ما يأتى معنا .

فى النادى عدد كبير من زوجات الاطباء زملاء كمال . عندما يمتحننى يأتين نشرب قهوتنا معا . يتخذن عن أولادهن ومتاعب الخاديات والموضات الجديدة فى الملابس ويثرثن بآخر الشائعات حول أزواج الاخريات ، يثرثن بلا توقف وأعجب من قدرتهن الفائقة على الكلام المتصل . انصت وابتسم أحيانا أعلق ولكنى لا أجد شيئا

ذا بال أقوله وكثيرا ما اتساءل كيف يحتفظ المرء بقدرته على الثروة بعد تجاوزه سنوات الطفولة . ولكنى لم أكن أضج بحديثهن فلولا لموت على ساعات ثقيلة أجلس وحدى أنتظر أن ينتهى الأولاد من اللعب .

كان يوما خريفيا دافئا وكنت أجلس وحدى عندهما سمعتهم يهتف باسمى ، أدت رأسى ولم أعرف عليه . كان فى الوجهاء أليف ، الابتسامة ربما لكنى لم أعرفه الا عندما قال اسمه انه مجدى ، الولد الصغير الذى كان يشاركنى اللعب مع أخى أحمد لكنه لم يد ولدا بل رجلا ، شاب مربع مفتول العضلات يظهر شعر صدره الاسود الكثيف من فتحة قميصه . أسمر له شارب كث ويلبس نظارة طبية ويتحدث بصوت خشن ، صوت رجل .

جلس مجدى وطلبنا القهوة وضحكنا طويلا ونحن نستمع ذكريات طفولتنا والخناقات اليومية التى كانت تنشأ بيننا . قال وهو يضحك « عندما كنا نختلف تتركينا معلنة أنك لن تلعبى معنا طول حياتك ونحن أيضا نعلن أننا مخلصينك والى الابد » . قلت وأنا أضحك : « وبعد ربع ساعة نختلف الاسباب لكى نتصالح ! » .

صرنا نلتقى ، أنا ومجدى ، نجدد صداقة الطفولة ، نثررونتواصل ويقول مازحا : « لكن الغريب يا خديجة أنك لا تتشاجر معى ... فكيف !؟ » فاضحك « لم أعد أتشاجر مع أحد ! » يضحك ويقول « غريبة ! » .

سألنى عن أحمد فحكيت : « سافر للدراسة فى أمريكا ثم قرر الإقامة هناك وهو الآن متزوج وله بنتان . لو تسألنى ان كان سعيدا سأقول لك انى لا أدري فهو بعيد ، لا يكتب الا بطاقة فى المناسبات ويتصل بـ تليفونيا بأبى وأمى مرة فى السنة . وهما يعيشان على أمل عودته وكان رجوعه الى البيت سعيده الى عمرهما شبابه لو رايت أبى الان فلن تصدق عينيك » .

جاءنى مجدى بلفافة كبيرة وقال وهو يفيض الغلاف : « يا صوره اشتراها قبل عشر سنوات . كانت الصورة لامرأة من التاريخ القديم لها وجه مستطيل وأنف مستقيم وشفتان بهما شيء من ابتلاء وعيناها سوداوان لوزيتان مسحوبتان بشكل ملحوظ من طرفيهما . وكان قرطها الطويل وعقدتها متعدد الافرع يؤكدان جمال عنق المرأة وطوله . وكان يملو رأسها تاج مرصع .

— ملكة ؟

- ملكة سومرية قديمة .
- الا تعتقدون أنها تشبهك ؟
- لا ، لا أرى أى شبه .
- قال مجدى بعناد :

- بلى انها تشبهك ، أنت أحلى قليلا ولكنها تشبهك !  
حدثت أبى وأمى عن لقائى بمجدى وحدثت كمال أيضا ورتبت أن  
نساول جميعا الفداء مما يوم جمعة بالنادى بعدها دعانا الى بيته ولما  
ذهبنا فاجانى تميز المكان . كانت شقة صغيرة ولكنها مؤثنة بما ينسجم  
عن ذوق رفيع فأثاثها من الطراز العربى المصنوع من الخشب المطعم  
بالصدف وأبسطتها من نسيج الانوال الشعبية زاهية الالوان والنباتات  
المنزلية الخضراء تضيف على المكان خصوصية وجمالا . وكانت صورة  
الملكة السومرية التى قال أنها تشبهنى تحتل مكانا فى مكتبة كبيرة  
تصدر الحجرة التى جلسنا فيها .

أكلنا وشربنا وتحدثنا وضحكنا وترجع الاولاد على الارض يتابعون  
الحديث فى شغف وعندما غادرنا قال كمال ان مجدى شاب لطيف وذكى  
و « لا تنس يا خديجة ان تدعيه الى بيتنا فى أول وليمة قادمة » وقالت  
أمى وهى تدب بخطوتها الثقيلة على السلم « ذكرنا بأيام زمان التى  
لا تعوض » . وقال أبى وهو يمسك بذراع كمال يستند اليه : « كان  
ينقصنا أحمد ، عندما يرجع بالسلامة سادعو مجدى الى بيتنا ونجده  
هذه السهرة الجميلة » .

أصبح مجدى صديقا حميما يلجأ الى يطلب مشورتى فى كل  
صغيرة وكبيرة . انه وحيد وغير مستقر وأنا كأخته .

حلمت أننى أزوره فى بيته الذى كان جميلا كما فى الواقع ، أجمل  
ربما مما فى الواقع : زرع أخضر وأرابيسك . قال انه يريدنى قلت  
أن ذلك مستحيل ولكنه عندما مد يديه الى تعانقنا وكان شئ ما يهوى  
فى داخلى من حلقي الى صدرى الى معدتى الى أسفل بطنى ، شئ ما كأنه  
روحى . استيقظت من نومي فزعة وأنا اكرر ان ذلك غير ممكن وغير  
صحيح لانه أخى ولا أحد يقبل أخاه بهذا الشكل لا فى الحقيقة ولا فى  
الاحلام ولكن الحلم ظل يتعقبنى كأمر واقع لا أملك إنكاره وكنت  
أتساءل : « هل يريدنى مجدى ؟ وهل أحسست برغبته بشمكل تلقائى  
لم أعيه ؟ » ولكنى امرأة متزوجة وأحب زوجى وأولادى وهو صديق  
وليس سوى صديق فما الذى يريده منى ؟!

لم أذهب الى النادى لاسبوعين متتاليين وعندما ذهبت رأيته

فسأل : « ما بك ؟ » قلت : « لا شيء ! » قال : « وجهك ممتقع »  
قلت : « ألم أقل لك اننى كنت متوقعة » قال : « اعتنى بنفسك أم  
تريدىنى أن أعتنى أنا بك ؟ ! » وضحك فماذا قصد بهذا الكلام .  
ناديت على الاولاد وغادرت الى البيت .

وجدت خطابا غراميا فى دولا ب زينب . كنت دائما أترقب أن أجد  
رسالة من هذا النوع بين ملابس كمال . أبحث أحيانا فى جيب سترته ،  
بين قمصانه ، فى حقيبته ولا أجد شيئا . ولكنى اليوم وجدت خطابا  
موجها لابنتى زينب من شاب يقول لها أنه يحبها ، يحب عينيها وشعرها  
واسمها وكل شيء فيها « ماشاء الله ! » وأنا كالطرطور لا أعرف من  
أمر ابنتى شيئا !

ما أن عادت من المدرسة حتى أخذتها الى غرفتى وأغلقت الباب .  
واجهتها بالرسالة ، ضربتها وشتمتها وصرخت فيها قائلة : ان البنات  
التي لا تحترم نفسها لا يحترمن أحد . قلت لو تكرر هذا الامر فانا  
أنذرك سأحبسك فى البيت ، لا مدرسة ولا نادى حتى باب البيت لن  
تريه بعينيك !

لم تظهر زينب على مائدة الغداء .. سال كمال سوسن : « أين  
أختك ؟ » أجابته : « عندها صداع ، أخذت مسكن ونامت » ونظرت  
الى وشفتائها مزومتان . هذه المئنت وقحة !

فى المساء دخلت حجرة البنتين فوجدت زينب تبكى . زجرتهما  
وهددتهما بالضرب ان لم تكف « ويكفى دلع وقلة أدب ! » قالت  
سوسن انها تريد أن تتحدث معى « على انفراد ! » عجيب أمر هذه  
البنات . لحقتنى الى غرفة نومى وأغلقت الباب .

— ما فعلته بزينب غلط .

— لا تتدخل فيما لا يعنك . أنا أمها وأربيهما كما أرى مناسباً .

لقد أخطأت ومن حقى أن أعاقبها !

— ماذا فعلت لكى تعاقبها بالضرب ؟ !

— ليس هذا من شأنك ، هى تعرف وهذا يكفى !

— أنا ايضا أعرف . لم يكن سؤالى استفهاما ، كان احتجاجا ! .

شاب كتب لها أحبك وهى حتى لا تعرفه فتعينيها كأنها أجمرت .

كان ذلك أكثر مما يحتمل الانسان . كظمت غيظى وتماكنت نفسى

بما يكفى ولكنى لم أستطع التحمل لظمتها على خدها وأنا أصرخ فيها :

— ما شاء الله ! هل تعطينى دروسا فى التربية ؟ ! أنا الأم ، أنا

أمر وأنا أنهى وانتم تطيعون فقط وبلا نقاش .

قالت وهي تترك الحجرة :

- أنت مخطئة ياماما !

أغلقت باب حجرة نومي بالمفتاح . كنت حزينة وغاضبة من تهور زينب وسلوكها غير المسئول . من تبجح سوسن ووقاحتها . ماذا أفعل لو أفلتت البنات ولم أستطع ليجهما ؟ ستكون مصيبة ، سيقول الناس نشلت خديجة في تربية بنتيها وكمال أيضا سيقول نفس الشيء رغم أنه لا يساعدني وعندما أشكو له يقول انها مسئوليتي وإن واجبه أن يعمل خارج البيت ليوفر لنا الحياة الكريمة .

أخرجت مندبلا مطويا من درج الخزانة الصغيرة ومسحت دموعي ثم تمخطت . جلست على المقعد المقابل للسرير وأشعلت سيجارة . من يدري ، ربما كانت هذه الرسالة ناقوسا صغيرا ينمهنى الى أن البنات كبرت وأن على أن أكون أكثر حرصا . لم تعد زينب طفلة بل أصبحت فتاة يهواها الشباب ويكتبون لها خطابات الفرام . هل حان وقت التفكير في تزويجها ؟ تمخطت وأشعلت سيجارة أخرى . ليست زينب هي المشكلة ، وقد تكون أخطاء ولكنها تردع وتطيع أما سوسن فياخوفى من سوسن . . كانت تنظر الى بصفاقية ، انها لا تخافنى ، ولا تخاف أحدا . . فما العمل فى بنت لا تخاف أحدا ؟

سألنى كمال :

- ما بك ؟

- لا شيء .

- كنت تبكين .

- سوسن قليلة الادب ، كنت أوبخها فردت على بشكل لا يليق .

- ووبخها كما يحلو لك ولكن لا داعى لأن تنهى توبيخك بالبكاء !

لم أقل له شيئا عن موضوع زينب لكنى حكيت الحكاية كلها لمجدى عندما التقيت به قال :

- لا تظلمى البنت قد يكون الشاب أعجب بها عن بعد وأرسل لها

هذه الرسالة . كلنا فعلنا ذلك فى مراهقتنا .

- أنت كنت تفعل ذلك ؟

- طبعا !

- كلام مجرد كلام تقوله لتخفف من حدة غضبى على البنت .

- والله انى كتبت عشرات الرسائل الغرامية لبنات لم أكن أعرف

عنهن أكثر من الاسم الاول . . أرى بنت الحيران فى الشرفة أو فى الشارع عائدة من المدرسة فأقع فى حبها وأقضى الليل ساهرا أنفزل

فى شعرها وعينها على الورق .  
- ولكنك لم ترسل لى أبدا رسائل من هذا النوع ، ألم أكن أنا  
بنت الجيران ؟  
ضحكت أما هو فلم يضحك . وعاد بالحديث الى موضوع زينب  
ونصحنى أن اتحدث معها بهدوء فقلت له اننى لن أملك نفسى لانى  
غاضبة « لم لا تتحدث أنت معها ؟ » فحدثها .

بعدها قال :  
- ظلمت البنت يا خديجة ، كما توقعت ، الشاب أعجب بها وهى  
لا تعرفه . لقد أرفق بالخطاب صورة له لكى تميزه عن الشباب الآخرين  
مجدى صديق أصيل وهو يساعدنى فى تربية الاولاد . محظوظة  
من تتزوجه .  
- لماذا لا تتزوج يا مجدى ؟  
- لو تجددين لى عروسة أتزوج !  
- هل تمزح ؟  
- أبدا .. هذه الفتاة ذات الشعر الاسود التى ألعب معها « بنج  
بونج » انها لطيفة جدا فكرت أكثر من مرة فى امكانية ..  
- ولكنها صغيرة ، أنها فى عمر زينب ..  
- لا أدري ، ربما .  
- قلت وأنا أضحك مداراة لشعور مفاجئ بالهرج .  
- اذا كانت فى سن زينب .  
- تكون أيضا فى سن سوسن ، ألم تقولى أن الفرق بينهما أقل  
من سنتين .

- لم أقصد ...  
- خديجة هل تعطينى سوسن ، لو قلت نعم أنتظر .  
- أعطيك زينب .  
- ولماذا لا تعطينى سوسن ؟  
- زينب أطيب وأحل وهى الأكبر  
- ولكن سوسن هى التى تشبهك .  
- سوسن لا تشبهنى ، انها عنيدة ولا تخاف أحدا .

طلب مجدى يد زينب من أبيها فوافق ولكنه اشترط ألا يتم اعلان

الخطبة رسميا الا عندما تتم زينب عامها الخامس عشر وفاتحت أنا زينب في الامر فاستغربته ثم وافقت ولكنها لم تبه حماسا الا عندما تحدث مجدى معها . سألتها « ماذا قال لك هذا العريس الماكر ؟ » فتدخل مجدى قائلا : « انه سر بيننا » ثم وهو يضحك « ماذا جرى يا خديجة ، هل بدأت تلصين دور الحمامة بهذه السرعة . أرجوك الا تتدخلى بينى وبين زوجتى ! » واستمر يضحك وضحكت زينب وضحكت أنا أيضا رغم شعور مفاجيء بعدم الارتياح .

فرحتى بخطبة مجدى وزينب بلا حدود . بإمكانى الآن الاطمئنان على البنت . سيحميها مجدى ويصونها ويرعاها ويشكلها كما يحلو له وسيسمح لها أن تنمو وتزدهر تماما كتلك النباتات المنزلية الخضراء البديعة التى تملأ بيته .

اضطجبت زينب الى مدام لاورا لتحريك لها ثوبا لحفل الخطوبة . قلبت فى عشرات المجلات حتى أستقر رأيى على الثوب المناسب وأخذت مدام لاورا المقاسات وقمت أنا بشراء القماش . وفى اليوم المحدد للقياس جلست على المقعد الوثير المواجه للمرابا الكبيرة فى بيت مدام لاورا أنامل زينب فى الثوب الذى تقيسه مأخوذة وفخورة وبى شىء من وجل . هذه البنت الجميلة ابنتى . طويلة وبياض وبضة كأهل أبيها ولكن شعرها وعينيها سود مثل « أريد النحر مفتوحا أكثر من ذلك » أدارت مدام لاورا مقصها الكبير فى القماش ووسعت فتحة النحر . قلت « وقصرى الطول قليلا » ركعت الخياطة على ركبتها وأخذت تثنى ذيل الفستان بالدبابيس . سألت « هذا الطول مناسب ؟ » قمت من على المقعد وابتعدت قليلا قلت « لا ، هذا أقصر مما يجب ، أريده بين هذا الطول والطول السابق » .

كان الثوب مشدودا على جسد زينب حتى الخصر يبرز امتلاء صدرها وتحول خصرها ثم ينزل بعد ذلك واسعا وفضفاضا بكسرات سخية . قلت للخياطة : « سلمت يداك . الخياطة الماهرة تظهر جودة القماش » فضحكت للأطراء وقالت أن القالب غالب .

مقص مدام لاورا لا يعلى عليه ، وأناملها تبذع وتجيد . ولا شىء فى مظهرها يتم عن قدرتها الخاصة فهى امرأة مميزة القصر ممثلة

الصدر والردفين تلبس ثوبا منزليا بسيطا وتلم شعرها الرمادى فى شبكة من خيوط سوداء دقيقة وتخلط العربية بالفرنسية والايطالية من يلحقها فى الشارع دون سابق معرفة يظنها بائعة يونانية فى محل للخردوات ولكنها مدام لاورا أمهر خياطة فى البلد لا يذهب اليها الا صاحبات الذوق الرفيع والجيب الممتلئ !

ساعدت مدام لاورا زينب على خلع الثوب المثبت بعشرات الدبابيس واتفقت معها على موعد القياس الثانى ثم موعد الاستلام قبل الخطبة بثلاثة أيام . « اذن سنأتى لآخذ الفستان بعد ظهر الاثنين ٥ يونية » أكدت عليها ونحن نغادر .



زينب تبكى بلا انقطاع وتكرر أن حظها سيئ وأنا أهون عليها  
مؤكد أن الأمر عابر وما أن تمر هذه الأيام حتى أقيم لك حفل  
خطبة اكبر وافخم من الذى ألقى .  
كان الراديو « الزينيت » الكبير الذى ابقيناه مفتوحا يواصل  
اذاعة البيانات العسكرية تعقبها المارشات وأغانى عبد الحليم حافظ  
لم يعود للبيانات مرة أخرى ولا تكاد صفارات الانذار المتصلة التى  
تلحن الامان تدق حتى تعلن الصفارات المتقاطعة عن غارة جوية  
جديدة .

منذ أمس الأول لم يعد كمال الى البيت اتصل بى بعد ظهر  
الاثنين من القصر العيني وقال انه قد يذهب مع زملاء آخرين الى  
السويس وانتقل أبى وأمى للاقامة معنا . والليلة كما فى الليلتين  
السابقتين كانت الساعات تمر ببطء غريب يحيط بنا ظلام داس  
فاضواء البيت مظفاة وكذلك اضاءة الشارع الذى توقفت فيه كل  
حركة وسكنت الاصوات الا من تحذير شاب أو آخر من شباب  
الدفاع المدنى يصيح : « طفى النور ... » يتقدم الليل موحشا  
وصامتا الا من صوت المدياع واضحا حين تضبط سوسن مؤثره  
على اذاعة القاهرة أو صوت العرب ومذبلها تعتريه الخرفشة  
حين تضبطه على الاذاعة البريطانية أو محطة اسرائيل فتلتصق  
اذنها بالمدياع تنصت ثم تعيد ما سمعته بصوت عال على جدها لكى  
يتمكن من فهم ما تقول .

أبى وأمى ينامان فى حجرة الاولاد ومعهما سعد . أما زينب  
وسوسن فتنامان بجوارى ، والليلة بعد أن دخلنا الى الفراش  
ونمنا استيقظت من نومي على صوت بكاء مكتوم . أضأت الصباح  
الجانبى وأنا افكر أن زينب بلهاء لا تزال تبكى على تأجيل خطبتها  
ولكنى وجدت زينب تغط فى نوم عميق وكانت سوسن هى التى تبكى

« ما بك ؟ » « لا شيء ! » حاولت أن أضغطها إلى صدري ولكنها انكمشت بعيدا كحيوان نافر .

البيانات العسكرية تتحدث عن الانسحاب إلى خط الدفاع الثانى ولم يكن أى منا يعرف أين يقع خط الدفاع هذا ولا معناه بالنسبة لسير الحرب . ولكن كان واضحا الآن أن الوضع سيء بالنسبة لنا .

لم يعد كمال إلى البيت منذ نشوب الحرب صباح الاثنين ورغم قلقى عليه إلا أننى كنت أشد قلقا على سوسن فعيناها غائرتان اتسمنا حتى ابتلعنا ثلث وجهها تتحرك في البيت غائبة وصامتة ولم تخرج عن صمتها إلا عندما قال أبى أن عبد الناصر أضاع البلد وخربها وكان ما كان فقالت له أنه رجل خرف ومن الأفضل أن يبقى لسانه في فمه وكدت أوبخها على سوء سلوكها ولكنى لم أفعل ... البيت متممة ، أشفق عليها .

الخميس ليلا عاد كمال فراح أبى يسأله : « أين خط الدفاع الثانى ، ما معنى قبول وقف إطلاق النار الآن ، هل انسحب الجيش المصرى من كل سيناء ، هل احتلها الإسرائيليون ؟ هل هناك جرحى كثيرون ؟ ما عدد القتلى ؟ » كان أبى يسأل ولا تأتيه اجابة على أسئلته فيسأل أسئلة أخرى ثم يعود إلى الأسئلة الأولى . قال كمال بصوت عال لى يسمعه أبى : « انتهى يا عمى ، انتهى ، خسرنا الحرب ! » وقام وطلب منى أن أصنع له كوبا من الشاي « سأشربه في غرفتى ! »

كانت ليلة ثقيلة وطويلة قضيتها في الفراش مع كمال دون أن يغمض لنا جفن ولم يفتح أى منا فمه بكلمة كان أحدهما نائم والآخر وحده هو المستيقظ . كان كمال يتقلب كثيرا في الفراش ثم استقر على جانبه الأيمن فلم أدرى وجهه بعدها سمعته يبكي ، يشج وينتحب بصوت مكبل ومكتوم فاجتاحنى قزع هائل ووجدت نفسى غير قادرة على أن أفعل أى شيء ولا حتى أن أمد يدي وأربت على كتفه أو أمسك بيده . كنت خائفة إلى حد التخشب في مكانى حتى صباح الجمعة .

جمعة حزينة في البيت والشارع يتردد فيها صوت المجرى فتتأكد الوحشة ، وحشة اللاتم الكبيرة ، لم تدر الخادمة بالبخور المخلوط بالمستكة والجبهان فهى لم تأت ولم يستحم الأولاد كالعتاد . جلس سعد وزينب وأجمين ، أما سوسن فبقيت في سريرها حتى

بعد الظهر ، كمال يدخن ويشرب القهوة ولا يكلم أحدا وأبى يشرثر  
بلا انقطاع وأبى تحدجه بنظرات رادعة ولكنه يواصل حديثا لا يوله  
أحد اهتماما . ثم جاء مجدى وشربنا شايًا ثم قهوة ثم شايًا ثم  
قهوة في انتظار الثامنة مساء .

في الثامنة ظهر عبد الناصر على التلفيزيون قال اننا هزمنا في  
المركة ، سماها نكسة ، وأعلن تنحيه عن رئاسة الجمهورية . انتهى  
الخطاب ، المذيع ينتحب وكمال ومجدى يحدقان أمامهما ولا يقولان  
شيئا . أبى يبكي فتزجره أبى . اسمع طرقة الباب ، « سوسن ! »  
انادى . أين ستذهب هذه المجنونة ؟ أفتح الباب وانزل الى الشارع  
راكضة وراءها فأراها أمامى تركض في الشارع المهجور . انادى  
عليها ولكنها لا تستدير . أركض حتى الحق بها وأمسك بذرعاها  
« هل جننت .. الى أين تذهبين ؟! » أجراها جرا في اتجاه البيت  
وهى تكرر بالحاح ، برجاء ، بتوسل « أرجوك ، أرجوك يا أبى  
انركبنى ! » ولكنى أسحبها حتى أعود بها .

أجد زينب وسعد ومجدى وأبى وأبى واقفين على السلم .  
أبى يوبخ سوسن وأبى تزجره وتقول له الا يتدخل . أسحب  
سوسن الى حجرتها وأنا أقول : « عندما تتمين ٢١ سنة افعلى  
ما تشائين .. عندك ١٣ سنة تسمى كلامى . أنا ولية أمرك .  
أنا المسئولة عنك ! » طرقت الباب ورأى وأغلقت عليها بالمفتاح .  
كان كمال جالسا أمام التلفيزيون المعلق يحدق فيه كأنه مفتوح ،  
لم يحرك ساكنا . هكذا هو ... ترك ابنته تركض في الشوارع  
وهو جالس بلا حراك . كنت ما زلت ألثمت متقطعة الأنفاس ،  
صدرى يعلو ويهبط من الركض والانفعال . قال أبى « ابنتك  
مجنونة ! » فلم أغلق ولكنى فكرت أنها فعلا مجنونة ... هل تفعل  
في نفسها شيئا ؟ فانتفضت من مكانى كالملدوغة وقمت لأطمئن .  
فتحت الباب فوجدتها جالسة على الأرض تسند ظهرها الى السرير  
وتخفى وجهها بكفيها . هذه البنت مجنونة قد تؤذى نفسها ، قد  
تفتح النافذة وتقفز منها ، قد تدق رأسها في الحائط وتشجه ،  
هرولت الى المطبخ . واتيت بحبل غسيل وربطت الحبل في عمود  
السرير وعقدته ثم لففته حول جذعها وخصرها مرة وثانية ثم  
ثالثة . نظرت الى وكأنها انتبهت فجأة وصرخت : « - ما ماذا  
تفعلين ؟ ! » . لم أجبها واتجهت الى باب الحجرة ولكنى قبل أن

اغادرها استلذت لاثاكد . كانت سوسن مقيدة تماما بالجبل الى رجل السرير الخشبية الضخمة لا تستطيع ان تتحرك ... مستحيل أن تؤذي نفسها ! اغلقت الباب وذهبت .

دخلت الى المطبخ لأصنع لنفسى فنجانا من القهوة . جاء سعد وقال : « ماما ، بابا وجدى ومجدى يريدون قهوة » ثم شب على أطراف أصابعه وأحاطني بدراعيه وقبلنى فى كتفى وقال « ماما لا تبكى » فانتبهت لكونى أبكى . قبلت سعد ومسحت دموعى واكملت صنع القهوة ثم حملتها اليهم . لم أجدهم بالصالة ، كانوا بالشرفة وقال مجدى مفسرا : « يبدو ان هناك تجمعها ، سمعنا جلبة وأصواتا » .

صوت يقترب ، يعلو ويهبط ، يظهر ويختفى ، يدور ويقف كأنه آلة ضخمة أو عجلات قطار أو موج بحر بعيد .

- انها مظاهرة !

- وهل هذا وقت مظاهرات ؟!

- من يدري لعلها مظاهرة ضد عبد الناصر ، ثورة يعنى ! . نحدق فى العتمة ولكننا لا نرى شيئا ثم سمعنا : « تحيا مصر ... تحيا مصر » وهتف سعد وهو يشير يده الى كتلة صغيرة بدت فى الشارع الواجه . الكتلة تكبر والأصوات تعلو . ليست مظاهرة واحدة فالأصوات تأتى من جهات متعددة . ثلاث كتل بشرية نراها الآن تندفق الى الميدان حيث التمثال البرونزى . البشر يمثلون الميدان الذى لا يتسع فيفيضون فى الشوارع ويعلو صوتهم مدويا يرج البنايات العالية التى كان سكانها مثلنا واقفين فى الشرفات يشاهدون . قال أبى :

- هذا الرجل داهية ، تنحى عن الحكم ثم اطلق الناس فى الشوارع لكى يقولوا له ارجع !

قال كمال :

- أشك !

قال مجدى :

- بصرف النظر عن الحقيقة ، الشيء المؤكد انه أفرقنا وهو

المسئول فلينتظر أذن حتى يجد لنا مخرجا .

همست زينب فى أذن مجدى . سألتها :

- ماذا تريدن ؟

تلمتمت ثم قالت :

.. كنت اطلب منه ان يرجوك ان تسامحى سوسن وتفكى  
لهدها .

- لا تتدخلى فيما لا يخصك !

تحرك الكتلة لتدخل الشارع الذى لا يسمعها فتمتد مستظيلة  
المدى باتجاه شارع الجمهورية .

- الى اين سيذهبون ؟

- ربما الى ميدان عابدين او الى مجلس الامة .

- وربما لا يقصرون مكانا محددًا !

كان الميدان الآن قد عاد خاليا تماما الا من تمثال مصطفى

كامل ولكن الصوت بقى مسموعا وعاليا :

بالروح بالدم ... حانكمل المشوار .. بالروح بالدم .. نفديك

يا مصر ...

قال سعد :

- اذن سوسن كانت تريد ان تمشى فى المظاهرة ؟

قلت :

- سوسن مجنونة !

وتركتهم واقفين فى الشرفة وذهبت لاطمن عليها . أدت

الفتاح فى الباب ودخلت . كانت فى مكانها جالسة على الارض مقيدة

الى رجل السرير تسند رأسها الى ركبتيها ولا تحرك ساكنا . اغلقت

الباب وذهبت .

اقت لزينب حفل خطبة كبيرا ، تماما كما وعدتها . اكتظ البيت بالمدعوين وبدأت زينب في أبهى صورة : ينطق الثوب الوردى جمالها ويتلألأ الماس على نحرها وينزل شعرها الاسود الكثيف متموجا وسخيا على كتفيها .

أرواح واجيء ، أرحب بالضيوف وأشرف على تقديم الشربات والحلوى المصفوفة بعناية على صواني كبيرة من الفضة وأطمئن على سير الامور في المطبخ حيث ثلاثة من الطباخين المهرة يعدون طعام العشاء .

ثم يلبس مجدى زينب خاتم الخطبة واسواره من الماس فنصفق وتطلق الخادومات الزغاريد وبلتقط المصورون الصور قبلت العروسين ثم قلت : « مبروك يا كمال وعقبال سوسن وسعد » ، « مبروك يا خديجة » قالها وهو يميل على وجنتي ويقبلني ولاحظت ان عينيه دامعتان وأن بوجهه شيء من شحوب .

ليس لدى دقيقة فراغ واحدة . لدى عمل كثير ومسئوليات كبيرة . اختار لزينب موديلات الفساتين من المجلات الفرنسية والإيطالية واشترى الاقمشة وأحملها الى الخياطين وأوصى على مجلات الاثاث من المانيا والسويد لانتقى منها ما ينفذه صانعو الاثاث في دمياط . كالمعتاد كمال غائب كان زينب ابنتى وحدى . يعمل طوال اليوم ويعود في الليل مرهقا فلا يتبادل معى سوى كلمات معدودة .

كان مجدى في زيارتنا يوم الجمعة وكنا نجلس مجتمعين فى الصالون نتناول الشاي . أثبت بمجلات الاثاث لكى أعرض بعض ما اخترت على مجدى وزينب وكمال فاذا بمجدى يقول :  
- ولكن اثاث بيتى جميل ولن نشترى اثاثا أفضل منه فان

كانت زينب توافقنى نجرى تعديلات بسيطة ونحتفظ بالاثاث الحالى .. ما رأيك يا زينب ؟.

فاجأنى الكلام ووجدته لا يعقل .

— تقصد الا نجهز زينب ؟.

— جهزى كما تريدن ولكن بالنسبة لاثاث غرف الجلوس

والاكل والنوم . فلا داعى .

— وما الذى يتبقى اذن ؟.

— اشياء كثيرة ، المطبخ ، السجاد ، الثريات .

— هذه الاشياء على العريس .

— اذن سأشتريها .

— ونحن لا نشترى شيئا ؟!

تدخل كمال فى الحديث :

— ما رأيك يا زينب ؟.

— لا امانع فى الاحتفاظ بالاثاث القديم ما دام مجدى يحبه .

ما يقولونه سخف ولا علاقة له بالمنطق . اعلنت بحسم :

— زينب عروسة ولا بد أن تدخل الى بيت يليق بها .

— الله يسامحك يا خديجة . هذا البيت كونه بنفسى قطعة

قطعة واعتقد أنه جميل ويليقي بزينب .

— وأنا اعتقد أنه لا يليق بها ، او بنا !

موقف مجدى غريب والأغرب منه موقف كمال . لا ليس غريبا

موقف كمال . هكذا كان دائما يخالفنى فيما أقول ويخذلنى فى

المواقف التى احتاج فيها مساعدته ، كيف تتزوج البنت فى بيت

اثائه قديم ؟! وماذا يقول الناس ؟! الدكتور كمال صفوت الجراح

الكبير لم يجهز ابنته ، ابنته البكر ، فرحته الاولى ! ستكون فضيحة،

سيقولون أخذوا المهر ولم يجهزوا البنت ! فى الليل قلت رأى

لكمال . قال :

— ليست المسألة شكلية يا خديجة وهما اللذان سيميشان

فى هذا البيت . وبالنسبة شقة مجدى مفروشة بدوق جميل

ولو تذكرين أول مرة زرناه قلت لى ان الاثاث جميل .

— لا اذكر ! وحتى لو قلت ذلك فكلامى تعليقاً على شقة عازب

ولكن شقة ابنتى اؤثها كما يحلو لى ويليقي بها .... ثم ماذا

يقول الناس ؟ : أخذوا المهر ولم يقدموا شيئا !.

— اضربى المهر فى ثلاثة واشترى لها هدية ، لما لا تقدمى لهما

تذاكر سفر الى أوروبا لقضاء شهر الصسل ؟ .  
كمال لا يتفهمنى ، انهى النقاش بشكل جارج وقال لى أن أترك  
الاولاد وشأنهم والا أفسد حياتهم بتسلطى . لماذا يقول هذا الكلام  
وهل رأى أفسد حياة أحد ؟ أنا أربى له اولاده وافتح بيتى لكل  
من هب ودب من زملائه وهو غائب طوال اليوم ، يقول مشغول  
وعندما يكون نائما فى الفراش بجوارى يهمنى ولا يقربنى الا فى  
المناسبات . فمن الذى أفسد حياة من ؟ ومجدى ؟ لماذا يتصرف  
بهذا الشكل الاحمق ؟ كان سلوكه سخيلا وعناده أسخف فلماذا ؟  
وهل كان رقيقا مسمى لكى أعطيه البنت والآن بعد أن أعطيتها له  
يتعلم ويتحكم ؟!

لم نعاود الحديث فى الموضوع واعتبرت تطبيقه تراجعاً من  
جانب مجدى ... سنؤث البنت بيتا جديداً ولائقاً ، هذا ما قررته .  
يطلب مجدى أن نعد القران . قال « مرت على الخطبة ستة  
شهور . صارت زينب تعرفنى وصرت أعرفها واعتقد اننا نريد الآن  
الزواج مرة والى الأبد ! » وضحك . وافق كمال فكتبنا الكتاب  
فى حفل عائلى صغير وعلق كمال بعد أن ذهب المدعوون وآوينا الى  
حجرتنا « هكذا أفضل ! » قلت : « الآن يخرجان ويدخلان ونحن  
مرتاحين لا يشغلنا انهما تأخرا أو لم يتأخرا ولا تعترض أمى على  
كثرة لقاءاته بزينب . مجدى الآن زوج زينب على سنة الله  
ورسوله ! »

سأقيم لزينب حفل زفافها بالاسكندرية قلت ذلك لكمال  
فاستغرب وسأل « وما الحكمة ؟ » قلت « ما دمنا قررنا أن يتم  
العرس فى الصيف فلنقيم فى الاسكندرية ، فى « قصر المنتزه » لم  
يبد على كمال الحماس ولكنه لم يعترض قال « افعل ما بدا لك » .  
سيكون فرح زينب ومجدى حديث الأهل والاصدقاء لشهور  
وربما لسنوات . نستأجر قاعة الأفراح بقصر المنتزه حيث أعمدة  
المرمر وثرىات الكريستال والأسقف المنقوشة بهاء الذهب . هناك  
فى القصر ، حيث كان يقيم ملوك مصر تزف أنتى الى مجدى فى  
ثوب بلا مثيل اشترى قماشه من فرنسا وتحبكه لها مدام لاورا ،  
تلبس الثوب الابيض وتضع على رأسها اكلیل الزهور والطرحة  
وتزفها الراقصات على الدفوف وضوء المشاعل وتمتد الموائد فى  
البهو تحمل أطيب الطعام وبعد العشاء يكون الحفل فى حديقة القصر  
تحببه المغنيات والراقصات وتكون ليلة العمر بتصدرها مجدى



وزينب ويعرف الجميع ان خديجة عندما تنجز شيئا فهو دائما مذهش وبلا مثيل .

ولكن على زينب ان تتم هاهنا الاخير في المدرسة أولا وهذا شرط ابوها ، ان تنتهى من امتحان الثانوية قبل الفرح . مجدى يساعدنا في دروسها ، مرات ياتى عندنا ومرات يأخذها الى بيته . في الصباح تذهب الى المدرسة وفي المساء تلتقى به .

زينب هذه الايام شاحبة الوجه ، مضطربة ، لاحظت ذلك فسألته عما بها . قالت : « لا شيء » قد تكون اختلقت مع مجدى . هكذا الأزواج دائما يسببون النكد للزوجات . لو قالت لى ، لو كان الحق معها سأؤيخه يجب ان يعرف ان عليه مراعاة البنت فانا لم اعطها له ليفضبها ويتسبب في شحوب وجهها !

طلبت منى زينب ان نتحدث على انفراد ، اذن قررت ان نمشي لى . دخلنا حجرة نومي واغلقت الباب .

- هل اقضبك مجدى ؟

- ابدا ... ولكن ؟

- ولكن ماذا ؟

- اعتقد انى حامل !

وللحظة دارت بى الارض . استعدتها لعل أسأت السمع او الفهم ولكنها كررت نفس الكلام : « كيف ؟ » ثم « كيف تجرؤين ؟ » لم اتمالك نفسى ، صفعتها ، بصقت عليها وصرخت في رجليها . كانت زينب تبكي بحرقة وعيناها في الارض . مجدى هو القلب ، هو المسئول ، وضعت فيه كل ثقتي وليس اخلا للثقة . ليمس هذا وقت الانفعال لكنه وقت التصرف . اتصلت بمجدى في صمته رنلت اننى اريد ان اراه « فى الحال » ، « خيرا ، هل حدث مكرره ؟ » انكلب يتصرف بهدوء يفقد الانسان عقله . جاء مجدى راجعته بالامر :

- زينب حامل !

نظر الى نظرة غريبة ...

- غير معقول !

- هل تنكر انك عاشرتها معاشرة الأزواج ؟

نظر الى نظرة غريبة ثم ابتسم :

- ولكنها مفاجأة ، فعلا .. اسمى يا خديجة تدهشك .

الزفاف ونجعل من الشرحة فرحتين .

انه حقير ومجنون . ماذا اقول له ؟ تماكنت نفسي :  
- يا مجدى لقد أسأت التصرف وخنت الامانة . لقد سمحت  
لزينب بالذهاب معك الى بيتك لاني اثق فيك ولكن لم يخطر ببالي  
قط ان تفعل ذلك !.

- ربما كان يجب ان تكون اكثر حرصا لكن هذا ما حدث .  
ليس في الامر مصيبة على اى حال لان زينب زوجتى على سنة الله  
ورسوله والحمل في ايامه الاولى . لنحدد موعد الزواج .

- بهذه البساطة !!  
- نعم بهذه البساطة ، لانه يا خديجة ما دام لك كل هذه  
المحاذير على علاقتنا فما كان يجب ان تسمحى لنا بالانفراد فى  
بيت وحدنا لساعات طويلة .

- سمحت لاني كنت واثقة انكم لستم حيوانات .  
- لسنا حيوانات يا خديجة ولكننا بشر !  
قالها بحدّة وكان وجهه شاحبا . صرخت فيه وصرخ فى .  
- لا تزيدنيها . يا خديجة اتصرفى بحكمة ، حددى موعدا  
للزواج ، فلا تكون هناك مشكلة والا ...

- والا ماذا !!  
- والا آخذ زينب ، وهى زوجتى بالشرع والقانون !.  
- هكذا ؟  
- هكذا !.

قالها وتركنى وسمعت باب البيت يترك .  
مجدى خائنى ، تصوره افضل شاب على وجه الارض .  
اعطيته ابنتى فخان . الامانة وهامو الآن يتصرف بصفاقة منقطعة  
النظير فماذا حدث ؟ هل كان سيئا طوال الوقت وكانت على عيني  
غشاوة ام انه تغير ؟ هل كان يدعى الخلق الكريم حتى يأخذ البنت  
وحين ظفر بها ظهر على حقيقته ؟ هل فعل ما فعل لان الشيطان  
شاطر ام لانه هو نفسه شيطان لا يؤمن له جانب ؟ هل يريد ان  
يفضحنا وسط الناس ، هل يكرهنا وبضمر لنا شرا ؟ ربما فعل  
هذا كله لكى يضعنا امام الامر الواقع ونزوجه البنت بالطريقة التى  
يريدها بنفس اثاث بيته . وماذا عن حفل الزفاف فى قصر المنتزه  
على شاطئ الاسكندرية ؟ ماذا عن الاثاث المصنوع فى دمايط صورة  
طبق الاصل من الاثاث السويدى فى المجلات ؟ والثوب الذى تخيطه  
مدام لاورا ؟ كلها ضاعت كما ضاعت ثقتى فى مجدى ، مجدى

الى كسعد يتصرف هكذا ، هذا كثير ، كثير جدا . كنت ابكى  
واراد « لماذا يارب لم ترفع عن عيني الفسادة فارى مجدى على  
منه قبل ان أزوج له البنت ؟! »

انتظرت عودة كمال . قلت وانا اجلس بجواره :

- مجدى كان هنا اليوم وتخانقت معه .

رفع الى عينيه متسائلا :

- اتضح انه نام مع البنت .

قطب حاجبيه مستاء !

- ومن قال ذلك ؟.

- زينب

- كيف واين ومتى ؟!

قلت متلعثمة :

- فى بيته .

- وهل تذهب زينب الى بيته ؟.

- نعم

- دون علمك طبعاً ؟

- لا بلى ، أحيانا أوصلها وأحيانا ياتى هو لأخذها .

- أية حماقة ، أية حماقة !

كان كمال يضرب كفا بكف وكان وجهه احمر من شدة الغضب

لم اخذ يوبخنى ويقول ان ما حدث طبيعى ما دمت سمحت لهما

ان يكونا معا فترات طويلة بالشقة بمفردهما .

قلت باحتجاج ممزوج بالقرف :

- ولكنى لم اكن اظن انهما كالحيوانات .

- كان يجب ان تفكرى انهما بشر !

غريب ، كمال يحملنى انا المسئولية ويتحدث كأنه منحاز

لمجدى ولكنه غاضب يكظم غيظه . لم أجرو ان أقول له ان البنت

حامل لم يبادلنى حرقا بعد ذلك . دخل السرير وأدار لى ظهره

ونام اما انا فلم اتم طوال الليل . فى الصباح قال لى :

- تصرفى ، اتفقى مع مجدى على الاستعدادات الضرورية لحفل

الزفاف .. لا أريد ان اراه الآن ، انه زوج ابنتى ولا أريد ان ابدا

ملاقنتنا باهانتة .

غضبى من مجدى وزينب بلا حدود ولكن ليس لدى وقت

للتفكير فى مشاعرى فعلى القيام بعشرات الاشياء استعدادا للعرس

الذى حددت موعده بعد أسبوعين . على أن اشترى وأوصى وأتفق وأعد . لا أتحدث مع مجدى إلا فى التفاصيل العملية المطلوبة منه أتحدث معه وأنا أحتفظ بالمسافة التى خلقها بتصرفه ، مسافة عدم الثقة بعد الطعنة من الخلف . وزينب أيضا أعاملها بجفاء ، لا أبتسم فى وجهها ، ولكنى أتابع حالتها الصحية وأقدم لها النصيح والتوجيهات حتى لا تسقط فى حملها فتصبح الفضيحة فضيحتين ! قبل الزفاف يومين طلب مجدى أن يتحدث معى :

- تفضل ، ماذا تريد ؟ .

- أفضل أن نذهب الى مكان هادئ خارج البيت .

أخذنى بسيارته الى مقهى أنيق بأحد الفنادق الكبيرة .

قال :

- يا خديجة ان كنت اسأت اليك فانا آسف لم يخطر ببالى

أبدا ان أتسبب يوما فى ايلامك .

- ما حدث حدث والأسف لا ينفع .

- اسمعنى للنهاية . لقد تمنيت طول عمري ان أرتبط بكم .

عندما كنت طفلا كنت أكاد لا أغادر بيتكم وكانت جدتى تشتكى

لأبى كلما كتبت له رسالة وتقول ابنك يقيم فى بيت الجيران . كنت

طفلا وحيدا يعيش فى بيت جدته الوحيدة وكنت أهرب من وحشة

بيتنا اليكم للنعب ونضحك ونتخايق . وعندما وجدتك فرحت كانى

وجدت أهلى وبارتباطى بزینب صرت فعلا كما تمنيت دائما واحدا

منكم ... وتعرفين اننى أحبك ، وأحب احمد أخيك وأحب سعد

وسوسن وأحب زينب ، أحبها الآن مرتين ، مرة لانها زوجتى ومرة

لانك أمها .

يا خديجة أنا فرح بزینب وفرح بالطفل فى بطنها . ربما أخطأت

ولكن ما حدث حدث حبا . وها نحن نتداركه وبعد أيام نتزوج

أنا وزینب فلنسقط المראה ونهى المشكلة ولنقل صافى يالبن ونفرح

بالفرح .

ومد لى مجدى يده عبر المائدة لى يمسك بيدي ولكنى سحبته

يدى قبل أن يلمسها .

اقمنا الفرح بالشكل المناسب فى فندق كبير . زفة وراقصات

ومشاعل وموائد ممتدة ومطربون وبدت زينب فى الشوب الابيض

والطرحه فاتنة . هكذا شهد الجميع كما شهدوا لى : « لا أحد

بصدق انك أم العروس يا خديجة » يقولون ذلك فاضحك . كنت

أم العروس الفاضية المشغولة ولكنى لم أكن فرحة ، كانت المראה ساكنة في قلبى ومستتبة .

تمر الايام يتكور بطن زينب وينتفخ . تقول أمى أن البنت ستلد ولدا لان وجهها « تدور وابيض وأصبح مثل القمر » زينب جميلة ولكن الحمل يجعلها أجمل رغم أنها تجهد نفسها في الاستعداد لامتحان الثانوية العامة . تؤدي الامتحان وهى تلبس ملابس الحمل الفضفاضة وتلم شعرها في ذيل حصان خلف رأسها تقول « لا يضايقنى الا الحر » .

اليوم تظهر النتيجة . انتظر ان يتصل بى مجدى الذى ذهب للاطلاع عليها في المدرسة فيتصل بى كمال ويقول منشرحا ان زينب نجحت وحصلت على مجموع ٨٠٪ فرحت بالخبر ولكنى تساءلت لماذا اتصل مجدى بكمال ولم يتصل بى انا ؟

بعد اسبوعين اتصل بى مجدى في ساعة متأخرة من الليل وأخبرنى أن زينب جاءها المخاض فأيقظت كمال وتوجهنا الى المستشفى . تظن المرأة أنها تعرف ابنتها ثم تكتشف أن هناك جديدا لا تعرفه فيها . كانت المسكينة تكتنم الصرخة ، تبتلها ابتلاعا . يتقلص وجهها وينضغط . اعرف شدة ما تعانيه من ألم من تشنج قبضتها على يدي واختنق بالرغبة في البكاء ولكنى لا أبكى . يأخذونها الى حجرة الولادة وأجلس في الانتظار وأرى كمال ومجدى شاحبي الوجه يروحان ويحيئان في اضطراب ظاهر . الرجال أقوياء في الظاهر وفي المواقف الصعبة يتضح مدى هشاشتهم . أصبح فيهما : « لماذا لا تجلسان وتكفان عن هذه الحركة التى توثر الاعصاب ! » .

ترتد زينب فى فراشها ممثلة رغم الانهالك وجميلة رغم شحوب وجهها . أتت الممرضة بالصغيرة فى الاقمطة البيضاء والثوب الابيض الطويل الذى اشترته لها بنفسى . انظر اليها : وجه صغير أحمر ومجعد وعينان لم تفتحهما بعد وشفتان رقيعتان وأنف منفوش وشعر أسود ناعم وكثيف يكاد يغطي جبينها « انها ابنة زينب » تمتد وانا أمد يدي لأحملها . أحطتها بذراعى تماما حتى التصق جسدها الصغير بجسدى وللحظة لم أعرف أن كان ما أسمع هو دقات قلبى أم دقات قلب الصغيرة . أحسست بدفقة ما تربط جسدينا كان بشديى حليبا يدر .

قال مجدى وهو يقف بجوار زينب ويمسك بيدها وهى راقدة في الفراش : « سنسمى الصغيرة خديجة ! » .

أمى ماتت . كانت قوية ومتماسكة ترمى أبى المريض وتؤنسى شيخوخته فخطفها الموت وتركه ينزوى فى أحد الأركان ينتحب . أنا أيضا أنتحب ولا أغفل عن تفاصيل ضرورية : « اكتبوا النعي للنشر فى الجريدة » ، « ابرقوا لأحمد فى أمريكا وقولوا له أننا سنؤجل الجنازة الى الغد لعله يستطيع الوصول قبلها » ، « قولوا لزيّنب لا تأتى انها نقشة يخشى عليها » ، « هاتوا سعد ، ان لم يقف لجذته فلمن يقف ؟! » أمى ممددة فى سريرها الزان العتيق بحجرة نومها وبى رغبة فى رؤيتها وتقبيل يديها ولكنى لا أجرؤ ، أبكى . الموت حداة تنقض وتخطف وتبمثر .

ظهر اليوم التالى أخذوها وكان البيت يجمع بالمعزيات ، أتى الرجال وحملوها ووقفت فى الشرفة اتابعهم وهم يضعون النعش فى عربة نقل الموتى . أغلقوا الباب وأدار السائق المحرك « أحمد لن يراها أبدا . سيأتى من غربته ليجد انها ذهبت ! » ساععتها لطمت وولدت حتى سقطت مفشيا عليها .

النساء يقلن انى مؤمنة وانها ارادة ربنا وأنا أمسح دموعى فى صمت وصوت القارئ يتردد فى البيت . نساء فى الحداد يأتين ونساء فى الحداد يذهبن ثم تنقضى أيام العزاء « أبى ، ستأتى للأقامة معنا » يبكى ويقول انه لا يريد ان يفادر البيت « يا أبى ، عليك أن تتصرف بالمنطق والعقل ، كيف يقيم رجل فى سنك وحده فى بيت صار خاويا؟ » يمثل لكلامى وهو يبكى . تفلق البيت . اتكىء على ذراع سعد وتمسك سوسن بذراع جدها ويضع السائق الحقائق فى الصندوق الخلفى للسيارة ونفادر .

خديجة الصغيرة نعمة انعم الله على بها ، لولاها لكانت أبامى قاتمة لا تطاق . طقوس الحداد ، الملابس السوداء ، وفكرة الموت كسرب من الغربان يحوم وينعق . وأبى المسكين يضىء على أبامى الكئيبة كآبة . سقط فى بشر فاستكان واستسلم وانزوى فى القاع لا يريد أن يطلع منه ليضىء فى الحياة حاجات الحياة ، أطعمه بنفسى وأحميه وأغبر له ملابسه وهو يتشثب بى كطفل أصابه الفزع . أحمد وصل بعد أربعة أيام من وفاة أمى وغادر بعد أسبوع من وصوله ساعتها لأزم أبى الفراش أياما يرقض تناول أى طعام

حتى اضطر كمال لتغذيته بزجاجة جلوكوز معلقة الى جواره موصولة بأنبوبة رفيعة تنتهى بآبرة مرشوفة في أحد أوردته . والآن وقد تحسنت حالته وأصبح بمقدوره مغادرة فراشه ينادى على بلا انقطاع يجيبه سعد أو سوسن « نعم يا جدى ، هل تريد شيئاً ؟ » « أريد خديجة ! » وقد يكون له طلب أو لا يكون ولكنه يريد خديجة ولا يطمئن الا وأنا جالسة بالقرب منه . وعندما أخرج يصبح ، همه الشاغل هو السؤال عني ، أين ذهبت ؟ متى تعود ؟ وهل قالت انها ستأخر . لماذا تأخرت ؟ تضح به سوسن ، أما سعد فيسأله ويصبر عليه . كان سعد طفلاً هادئاً ولطيفاً وكبير وصار صبياً هادئاً لطيفاً اللف مما ينبغي ، الاولاد في سنه يلعبون الكرة في النوادي ويلعبون الى السينما وتشغلهم المصارعة والفامرات وقد يبدأ انشغالهم بالبنات وهو لا يشغله الا الرسم وأنا اقول له أن عليه أن يهتم بدراسته وليس بالرسم لأنه سيكون طبيباً فيجب : « حاضر بامام » هذا الولد لا يخذلني أبداً ، مهذب ومطواع ليته يطبع أخته بشيء من وداعته . هذه الهوجاء صاخبة وعنيدة ولا تترك أمراً يمر بهدوء . تناقش وتختلف وتحتج وتعرض دائماً بحدة . لو كان سعد كسوسن وسوسن كسعد لبدت الأمور اقرب الى المنطق ولكن لا منطق في شيء . وهل كان منطقياً ان تندهور علاقتي بمجدي حين ارتبط به برابط الدم فازوجه ابنتى وأصبح جدة ابنته . لم يعد كما كان ، لا يأتي لاستمع اليه ويستمع الى ، لا يسر لي شيء ، لم يعد صديقاً بل مجرد نسب . خدوم ومهذب صحيح ولكنه بعيد ، أبعد بكثير مما كان قبل أن يتزوج البنت فهل كان يقترب منا ليأخذها أم انه حين تزوج وجد من ينصت له فلم يعد بحاجة الى ؟ هل ابتعد لاننى قسوت عليه عندما عرفت بحمل زينب ؟ قد أكون أغضبته ولكنه جرحنى وأنا أكثر الناس ثقة فيه ثم جاء يريد أن يفسد المباه الى مجاريها فكيف ؟! لا منطق في شيء والايام لاتأتى الا بخيبة الأمل وأحمد أخى الذى انتظرت عودته سنوات جاء وذبح تاركاً لى احساساً بالخذلان وعدم الفهم . وجدت أمامى رجلاً مترهلاً في منتصف العمر هو أحمد وليس أحمد يؤكد ذلك لسانه المختلف وأسلوبه في التفكير والسلوك وحتى ملابسه العجيبة - رابطة عنق لا تناسب القميص وقميص لا يوافق السترة وخذاء مطاط يركب به الطائرة ليسافر من قارة الى قارة وبدأ لى انه قادم ليس من أمريكا بل من الأدغال ؟ ورغم ذلك تعلق الاولاد به قال سعد انه لطيف وأعجبت به سوسن أعجاباً شديداً ولم أعلق لأنه من غير اللائق ان أنتقد

أخى أمامهم ولكنى فكرت أن الطيور على أشكالها تقع وأن أخى مجنون  
وابنتى مجنونة وربنا يستر . جاء أحمد وذهب وبكيت عند استقباله  
فى المطار وبكيت أكثر عند وداعه .

البيت كئيب ولولا خديجة الصغيرة لصابنى انهيار عصبى .  
أذهب كل صباح الى زينب : « أى صباح جميل هذا الذى يصطحب  
الانسان فيه بهذا الوجه ! » جميلة وأميرة وتملأ القلب بالبشر . أحملها  
من مهدها وأخلع عنها ملابسها وأحممها وأرش جسمها ببودرة التلك  
الناعمة ثم ألصقها بالأقمطة والبسها ثوبا أبيض جميلا وأعطيها  
لأمها لترضعها . خديجة بلسم وهدية أتأملها فتملأ قلبى بالرضا  
وانسى كل الأوجاع . هدية صغيرة ، تكبر وتجلس ، تحبو وتنبت  
لها أسنان . أحب أن أحملها بين يدي وأحب أن أشتري لها  
ملابس ولعبا وحليا ، أسورة صغيرة من الذهب ، حلقا من اللؤلؤ ،  
مشبكاً يحمل آية الكرسي محفورة على رقيقة من البلاتين . أحب أن  
أشتري لخديجة لانى أحبها ولأنها أميرة يجب أن تلبس ما يليق .



حصلت سوسن على الشهادة الثانوية ، تريد أن تلتحق بالجامعة ، أنا لا أريد . أخشى أن تفلت البنت من يدي نهائيا . عمتي كريمة مالبثها لأصفر أبنائها وهو شاب ممتاز ويعمل مهندسا ولا يكبر البنت سوى بسبع سنين . قلت للكمال فقال : « مادامت البنت تريد اكمال دراستها فدعها » قلت : « ولكنها عنيدة ومتهورة وقد نذمت في المستقبل ، من الأفضل أن نزوجها قال : « اتركها وشأنها » .

يوم من أيام شهر سبتمبر مخنوق وقاظم عادت سوسن الى البيت مندفعة كالعاصفة وانهاالت على تقيلا وأخبرتني انها قرأت اسمها في كشوف المقبولين « وستكون ابنتك محامية قد الدنيا لا تتراجع في قضية خاسرة ! » فقلت لها انه من الأجدي أن تدخل المستشفى لأن رائجتها لا تطاق . كان وجهها وشعرها وملابسها مبللين بالعرق .

كانت سوسن تحسب الايام في انتظار بداية العام الدراسي عندما مات جمال عبد الناصر . اتصل بنا مجدي بالتليفون وأبلغنا بالخبر . فتحنا التليفزيون ، كان القارئ يتلو آيات من القرآن ، فتحنا الراديو فوجدنا نفس الشيء ثم اذاعوا النبأ . لا احب عبد الناصر ولا أنا معجبة به ، أبى يكرهه ويقول انه خرب البلد والدكتور سالم يقول انه أطلق الغوغاء علينا وأثار الحقد في نفوسهم وقال لهم لكم حقوق ونسى أن يقول أن عليهم واجبات ، كمال لا يكرهه بنفس القدر ولكنه لا يثق فيه .

قلت للخبر لأبى قال :

- ماذا تقولين ؟

فكرت بصوت أعلى :

- عبد الناصر مات

- من ؟

- عبد الناصر !

- قتلوه ؟

- لا ، مات .

- وهل أرسلوا في طلب احمد قواد ؟

— أحمد فؤاد ؟

— ولي العهد

فضحكت ولكنى كنت مرتبكة وربما حتى خائفة فما الذى يحدث  
لأن ؟

— سوسن ، ماهذا ؟!

صرخت فيها وأنا أكاد لا أصدق عينى . هذه البنت مجنونة  
وستجئنا معها استبدلت بثوبها ثوبا أسود . طلبت منها أن تخلع  
هذه الملابس « فورا » ... لم تستجب .

يتوافد على مصر رؤساء الدول المختلفة بعضهم يتحدث فى  
التليفزيون يعنى عبد الناصر ، نشاهدهم كما نشاهد جنازته فى  
التليفزيون ولا نستطيع أن نمنع دموعنا ونحن نرى الشوارع تفيض  
بالناس يتخاطفون النعش يطير فوق رؤوسهم يختفى منهم ويتوارى  
ثم يظهر فوق أعناقهم . أنا وزينب نيكى وسعد يقابل دموعه أما  
سوسن فلا أفهمها تجلس بملابس الحداد صامتة جامدة الوجه كأنها  
تحولت الى حجر .

أصرت سوسن أن تلبس أسود أربعين يوما . حاولت أن ائنيها  
ولم أفلح فقررت انها مجنونة وتركتها كما نصح أبوها كلما أطلب  
منه أن يعاوننى فى تربيتها ، كلما شكوتها له قال « أتركها » ولو  
أفلتت البنت نهائيا ؟ يكون هو المسئول !

تنتضى الأيام والشهور مقفرة وكئيبة . أبى يجلس أمام  
التليفزيون يهذى بذكريات مكررة . كمال غائب فى عمله وسوسن  
وسعد منهمكان فى دروسهما أكاد لا أراهما . لولا خديجة الصغيرة  
لأغرقتنى الوحشة . انها وردة وهبها الله لى . تسمينى ماما .  
وأحب أن تقيم معى . مجدى وزينب يتركانها معى أياها ثم يأتيان  
ويأخذانها ... يملؤنى الضيق وما أن يصبح الصبح حتى أذهب  
لرؤيتها . خديجة وردة ، وردتى .

ذهبت سوسن لتأتى بنتيجة الامتحانات وعادت . عندما دقت  
الباب ودخلت عرفت أن شيئا ما ليس على مايرام .

— ماذا حدث ؟

— رسبت فى ثلاث مواد .

— كيف ؟

— لا أدرى .

— لعل فى النتيجة خطأ

— هل يذهب أبوك للعميد لكي يراجعوا أوراقك ؟

— لا .

— ألم تحضري هذه الامتحانات ؟

— حضرتهما

— اذن كيف رسبت ؟

— ربما لم استذكر بالشكل الكافي .

لم اصدقها فهي تجلس على مكتبها بالساعات وهي ذكية ولم  
ترسب في حياتها . في الليل قلت لابيها فتحدث معها في حجرتهما  
ثم قال لي : « يبدو أن البنت كانت تقضى معظم وقتها في قراءة كتب  
لا علاقة لها بالدراسة » . « كيف ، ماذا كانت تقرأ اذن ؟ »  
قال : « لم أسألها » .

كان أول ما فعلته في الصباح هو سؤالها :

— ماذا كنت تقرأين ؟

— الآن ؟ .

— ماذا كنت تقرأين بدلا من الكتب المقررة ؟

— كتب !

— أعرف انها كتب ، في أى موضوع ؟

— في التاريخ ، في الاقتصاد ، في السياسة .

— اسمعى ياسوسن لو كنت أعرف أنك سترسبين لما ادخلتك  
الجامعة . وان كانت المسألة هي قراءة كتب للتسلية فيمكنك عمل  
ذلك في البيت .

— ولكن يا ماما . .

— اسمعيني جيدا . أن لم تتفوقى في دراستك ، لا أقول أن

لم تنجحى ، أقول أن لم تنجحى وبتفوق سابقك في البيت !  
لا أدري ما الذى يحدث للأولاد حين يكبرون ، انهم يخيبون  
رسبت سوسن أما سعد فيقضى معظم الوقت في الرسم وعمل تلك  
التمائيل الطينية الصغيرة التي حولت حجرته الى مزبلة . ادفعسه  
للمذاكرة دفعا ، أقول له ستكون طبيبا والطبيب لا يبدد وقته  
فيما لا طائل وراءه فيقول يا أمى دعيني اكمل ما بدأت فأتمكن  
من التركيز في الدروس . فكيف أتركه واكمل ما في يده قد يستغرقه  
الليل بطوله . لولا خديجة الصغيرة لانفجرت ضيقا .

بدأ العام الدراسى وأبقيت عينى مفتوحتين . أراقب سوسن  
وسعد لاتأكد انهما يدرسان . اجلستهما امامى في أول ايام الدراسة

وقلت لهما بوضوح اننى لن اسمح بأى اهمال فى الدراسة « كتب خارجية ، رسم ، تماثيل ، كلها ممنوعة . عندما تنتهى السنة الدراسية افعل ما تريدان . الآن تدرسان ونقط ! » سعد يحرق فى قدميه ولا يرفع رأسه . سوسن لا يعجبها كلامى ، أعرف هذا من نظرة عينيها ولكنها لا تجرؤ على فتح فمها .

أحب ان افاجئ الاولاد اثناء الدراسة لأتأكد . فتحت الباب على سوسن فوجدتها جاثية على ركبتيها منحنية على ورقة بيضاء كبيرة مسطرة امامها على الارض . وكانت تكتب ببطء وعناية بقلم اسود .

— ماذا تفعلين ؟

— كما ترين ، أكتب

— ولماذا على هذه الورقة الكبيرة ؟

— انها مجلة حائط .

— طلبها أحد الاساتذة ؟

— لا ، ولكنها جزء من نشاط الأسرة .

— دعيني أرى

أخذت المجلة وبسطتها أمامى على المكتب . كان أسم المجلة « الشعلة » وبها مقالات ورسوم كاريكاتورية . مقال بعنوان : « الجامعة الطوفة » وآخر عنوانه « قطط سمان تحكم وقران تحمل القلم » ومقالات أخرى لم اتحمل قراءتها . كان الأمر صادما بما لا يحتمل . أخذت أمزق المجلة صرخت سوسن : « ماما ماذا تفعلين ، هذه المجلة ليست ملكى ... ثم انها » « أخرى ! » قلت وأنا أصفعها على وجهها « أخرى تماما لقد تعبت من الكلام معك ! » وعندما عاد كمال من عمله أخبرته بكل شيء ، حكيت له بالتفصيل عن المقالات التى تهاجم الحكومة والرسوم الكاريكاتورية التى تسخر من الجميع حتى مدير الجامعة يستخرون منه ، تصور ؟ ! . نادى على سوسن وراح يتحدث معها بهدوء مثير للأعصاب ، كنت أغلى غيظا ، أكاد انفجر . قال كمال :

— سوسن نحن أسرة لا علاقة لنا بالسياسة . تريدان خدمة البلد شيء جميل ونبيلى ولكن مادخل السياسة فى الموضوع ؟ ! انك تهاجمين الحكومة ولن تجنى من وراء ذلك سوى السجن والبهدة . وانت بنت ونحن أسرة محترمة وأنا طبيب أخدم بلدى فى مجال تخصصى . تريدان أن تخدمى بلدك اهتماى بدروسك وكونى محامية

ماهرة وليس هناك خدمة افضل ولا اجل وبالمناسبة لو لم ترسبى العام الماضى لوفرت على نفسك نصف هذا الكلام .  
طاطات رأسها وقالت :

— لقد أخطأت برسوبى وأعدك ألا يتكرر الخطأ .  
— أريدك أن تعدينى ألا تتدخلى فى المسائل السياسية .

— ولكن ...

— أريد وعدا !

تدخلت انا فى الحديث :

— ان لم تعدى بابا الآن قلن أسمح لك بالذهاب الى الجامعة

— ولكن ياماما

قاطعتها :

— أختارى .

— ولكن

— أختارى ولا مجال للنقاش .

— أريد أن اذهب الى الجامعة

قلت :

— اذن هذا وعد منك بالا تكون لك علاقة لا بالسياسة ولا بمن

يعملون بها من طلاب .

— ولكن هذا ظلم ... ليس هكذا تفرض على المرء الاختيارات !

قالتها فى حدة وهى تغادر الى حجرتها فقلت لكمال ان سوسن

مجنونة ولن توصل الامور لبر امان . سوسن تقيض سعد هو لطيف

ويسمع الكلام اما هى فمتمردة تحتاج لجاما لكى لا تفلت .

أثناء السنة الدراسية اكاد لا اغادر البيت لأشرف على دراسة

سوسن وسعد وحتى فى الاجازة لا اخرج الا قليلا لان ابى صار

متعلقا بى كطفل صغير . ان دخلت دورة المياه يسأل اين ذهبت ان

تحدثت فى التليفون يحلو له أن يطلب منى قضاء حاجاته . حتى

خديجة لا تستطيع الذهاب لرؤيتها بل تحضرها لى زينب او مجدى .

زينب حامل للمرة الثانية . أريد أن تلد ولدا ومجدى أيضا يريد

ذلك وهى تضحك وتقول : « ما يأتى به ربنا خير » زينب طيبة فلماذا

جاءت سوسن مختلفة الى هذا الحد ؟

سعد عاد متهلا بخبر نجاحه فى الثانوية العامة وعرفت قبل

أن ينطق كان وجهه مشرقا وعيناه ضاحكتين :

قلت وانا احتضنه :

— مبروك يا سعد :

— الله يبارك فيك يا ماما

— والمجموع ؟

— ٧٢ ٪

— وجمت ، كيف يدخل كلية الطب بهذا المجموع ؟!

— ولكنك قلت لى انك اجب على الامتحانات بشكل جيد

— نعم

— كيف اذن حصلت على هذا المجموع ؟

— ولكن ٧٢ ٪ مجموع جيد يا أمى وسيمكثنى من دخول

الجامعة .

— لن يمكنك من دخول كلية الطب .

تلعثم سعد واحمر وجهه . قال :

— اسمعى يا أمى دعينى اقول لك الحقيقة بلا لف ولا دوران :

لا ارجب فى دخول كلية الطب .

ماذا يريد هذا الولد ، لا أفهم ، هل يمزح معى ، هل يلعب

بى .

— لا تقل هذا الكلام يا سعد ، اعرف انك اجتهدت ولم تحصل

على المجموع المناسب ولكن بامكانك أن تعيد السنة وتدخل كلية

الطب .

— لن أعيد السنة لسبب بسيط هو أن مجموعى يسمح لى

بدخول كلية الفنون الجميلة وهى ما أريده .

الولد يقول هذا الكلام لانه لا يريد إعادة السنة ولكنها لحظـة

يأس عابرة .

— اسمع يا سعد سنة واحدة اضافية ليس لها قيمة بالمقارنة

لمستقبلك كله ... ستكون طبيبا ، أعد السنة وكن طبيبا !

— ولكنى لا أريد أن أكون طبيبا .

قالها بحدة وهو يذب بقدمه على الأرض ، ساعتها انفجرت

بأكية . الاولاد يريدون القضاء على ، انهم ناكرون للمعروف ، كل

هذا الجهد وهم لا يفكرون الا فى أنفسهم . حاول سعد أن يطيب

خاطرى ولكنى دفعت به بعيدا وقلت له انه ولد عاق وجاحد

« اتركونى وحدى ، لا أريد منكم شيئا » دخلت حجرتى وصفت

الباب وبقيت ابكى حتى عاد كمال .

— هل رسب سعد ؟

— حصل على ٧٢ ٪

— هل صدمته النتيجة ؟

— لم تصدمه ، صدمنى كلامه فهو يقول انه يريد دخول كلية  
الفنون الجميلة .

ذهب كمال ليرى سعد ثم عاد وقال :

— اغسلى وجهك وتعالى لتتناول الغداء .

— هل تحدثت معه ؟

— تحدثت

— وماذا قال ؟

— قال انه يريد دخول كلية الفنون

— وماذا قلت ؟

— لم أقل شيئا

فواصلت البكاء وقلت اننى لست جائعة .

بقيت ابكى اليوم بطوله وفى الليل اعطانى كمال مهدئا فتمت وفى  
اليوم التالى اعتكفت فى حجرتى . لثلاثة ايام لم ابادل سعد حرفا  
كنت افكر انه خذلنى وهو الذى عشت اعول عليه وابنى الامال فما  
الذى يبقى لى . زينب مشغولة بزوجها وسوسن مجنونة لا يمكن  
الاعتماد عليها وها هو سعد يخذلنى ، احمل والد واربنى واكبر  
ولا افعل سوى الاهتمام بامرهم ، كل الساعات وكل الايام وكل  
السنين من اجلهم ثم يخذلون ، ابكى .  
سعد يثق الباب ويدخل . اقول له ان يذهب لاني لا ارغب  
فى رؤيته ولكنه يقترب منى والدموع تبلل عينيه : « لا تفضسى  
يا امى ، سافعل ما يرضيك . ساعيد السنة » .

قال مجدى :

- قبل أيام عرض على السفر الى المانيا فى منحة تدريبية لمدة سنة .

- وهل وافقت ؟

- وافقت

- لا تقلق على زينب وخديجة . سافر انت بالسلامة وهما تنتقلان للإقامة معى .

- ولكنى سأخذهما معى

- كيف ؟

- هذا ما قررته !

أمره غريب ! قبل أن يتزوج كان يستشيرنى فى كل صغيرة وكبيرة والآن يقول هذا ما قررته . هكذا ببساطة وكأن الأمر لا يتعلق بى أنا أيضا ، ألن يأخذ ابنتى وحفيدتى ؟!

- ولكن زينب حامل ومن الأفضل أن تكون فى رعايتى أثناء الولادة وبمعداتها .

ضحك :

- لا تقلقى يا خديجة يوجد فى المانيا أطباء ومستشفيات أيضا .

نظرت لزينب لعلها تقول شيئا ولكنها لم تقل . من الواضح أنها تريد مصاحبتة .

- هذا شأنكم ، سافروا ان أردتما ولكن اتركنا لى خديجة .

ضحك مجدى ثانية :

- هذا هو المستحيل بعينه . لا أنا ولا زينب يمكننا الاستغناء عنها .

وأنا ؟ هذا ما لا يفكران فيه . رغبنى القم ولم أقل شيئا . مجدى قلبه أسود ، أنه يكرهنى ويريد الانتقام منى . أخذ منى زينب والآن يأخذ خديجة . لم أتم طوال الليل وفى الصباح سألقى كمال ان كنت مريضة . قال « وجهك أصفر » . نظرت فى المرآة ، كان كلامه صحيحا .



قلت لنفسي هما لا يهتمان بي فلماذا اهتم انا ! ساواجه  
القسوة بالقسوة . كررت ذلك لنفسي عشرات المرات ولكنى عندما  
ودعتهن في المطار بكيت وعندما عدت الى البيت بكيت اكثر . ستلد  
زينب في القرية فمن يقف بجوارها ساعة الألم ؟ من يمسك بيدها  
ساعة تقصم الطلقة ظهرها ؟ وخديجة هل تنساني ؟ مجدى قلبه  
أسود لا ينسى أبدا اننى أسأت اليه يوما ... ولكنى لم أسئ ، هو  
الذى أساء ويسئ !.

قلنا أبى الى المستشفى ، انه يحتضر ، أعرف ذلك من حالته  
وعيون الأطباء . دخل في غيبوبة ولم يعد يتعرف على أحد ثم مات ،  
هذه أسوأ سنة مرت على في حياتي . ليس صحيحا أن أبى كان  
يزيد من كآبة البيت . غاب فأصبح البيت أكثر كآبة . لا أجد  
ما أفعله بنفسى . كمال غائب طوال اليوم وسوسن وسعد يقدمان  
امتحانات آخر العام كل يستذكر دروسه في حجرته خلف باب  
مغلق . يمر اليوم بطيئا وموحشا وأنا ادخن بلا انقطاع وأسرف  
في الأكل بشكل استغربه وفي الليل انام بشكل متقطع وتدهمنى  
الكوابيس . النهار كئيب ولا يمر والليل مفزع وأنا أختنق .

استيقظت من نومى يلفنى شعور ناعم ودافئ .. ماذا حدث ؟  
شئ ناعم كملس غطاء صوفى في صباح يوم شتائى أو كجسد خديجة  
الصغيرة بعد ولادتها ... انه طفل نائم بين ذراعى ، هذا هو  
ما رأيت .

كنت أحمل طفلا صغيرا له وجه وردى مدور وشعر أسود  
كثيف . وجه الوليد يلاصق ثديي أشعر بأنفاسه الدافئة وفمه  
المستدير يخفى حلمة الثدي السوداء وأشعر بالحليب يفيض .  
لفنى الحلم طول النهار وانتظرت عودة كمال كي أحكى له وعندما  
عاد قلت « لقد رأيت حلما جميلا الليلة » قال : « خيرا ؟ » فحكيت .  
ضحك وقال : « زينب حامل وعمما قريب تحملين بين يديك ابنتها »  
قلت : « ولكنها رؤيا ! » فلم يستوقفه كلامى . ولكنها رؤيا كررت  
لنفسى ولو تركت نفسى بلا موانع أحمل وبأثنين انطلق الذى حلمت  
به . شغلنى الأمر لأيام ثم حدثت كمال فاستغرب ، ثم استنكر  
ورفض بشكل قاطع أن تنجب طفلا فجرحنى وأفسد قرحى .  
الأيام تمر بطيئة وبلا معنى لا أجد ما أفعله أو ما يشير الاهتمام ،  
استيقظ من نومى متأخرة في الغالب ، أشرب الشاي ولا أفطر في  
محاولة لانقاص وزنى الذى زاد في الشهور الأخيرة بشكل ملحوظ ،

أذهب الى مصفف الشعر مرتين في الاسبوع ، وأحيانا أذهب الى النادي حيث التقى ببعض المعارف استمع الى ثرثرتهن بقدر قليل من الاهتمام .

على مائدة الغداء في يوم جمعة قال سعد انه يريد ان يسافر الى أوروبا في الأجازة الصيفية وكان يوجه كلامه الى أبيه . قال أبوه : « سافر وخذ معك أمك وأختك وأذهبوا الى زينب في ألمانيا لتطمئنها عليها وعلى خديجة الصغيرة وكريم » ، وكانت زينب قد وضعت قبل أيام وليدا أسمته كريما . تلثم سعد واحمر وجهه ثم قال وهو ينظر الى الصحن الذي امامه : « آخذ سوسن وماما الى زينب في ألمانيا وأتركهما هناك وأواصل رحلتي ، أريد ان أذهب الى إيطاليا وفرنسا لمشاهدة الآثار الفنية » سعد يريد السفر وحده ، سأسمح له بالسفر سيصبح طبيبا ولابد ان يسافر ويعرف ويجرب فيبهر الآخرين بمعارفه ومشاهداته ، قلت : « اجتهد في دروسك يا سعد وما ان تنتهي الامتحانات حتى تسافر » قالت سوسن : « وأنا ؟ » قلت : « أنا وانت نسافر معا في فرصة أخرى » سوسن مجنونة وسعد لا يستطيع لجمها والسيطرة عليها ، لابد ان اكون معها .

بعد الامتحانات سافر سعد ، تأييني منه بطاقات بريدية « ماما انا بخير . وصلت اليوم الى روما ولا أدري متى أغادرها . سلامي الى بابا وسوسن . قبلاتي » . كلمات خاطفة برقية يكتبها لي على عجل ، ولكنه يكتب لسوسن رسائل طويلة ، ويحملها ساعي البريد فأعرف من الخط المنمنم الجميل على الظرف أنها منه « ماذا يقول سعد يا سوسن ؟! » . تهز كتفيها : « يقول انه مبسوط ! » ولا تزيد .

اليوم وصلتني من سعد رسالة قلت لنفسي قبل ان اقراها ظلمت الوالد ، قلت لا يهتم بأمرى ولا يعنيه حتى ان يحكى لي اخباره ببعض التفصيل وها هو يكتب لي رسالة . بدأت اقرا : ماما الحبيبة ...

أكتب لك من باريس التي وصلتها منذ اسبوع . فكرت طويلا قبل ان اقول لك ما سأقوله ، فكرت ان اطلب من سوسن ان تحدثك في الموضوع ثم عدلت . سأحاول ان اكون مباشرا وشجاعا في طرح الامر وحاولي ان تتحلى بالصبر وأن تفهميني . قبلت ان أعيد السنة فقط لكي ترضى عني ولكي لا تقولى لم

بدخل سعد كلية الطب لانه لم ينجح في الحصول على درجات يؤهله لذلك . فكرت في ذلك كله ، وفكرت فيه كثيرا وطويلا . اعدت السنة رغم عدم رغبتى في اعادتها . اعدتها من اجلك ، فقط من اجلك . وبعد ايام ستظهر النتيجة والارجح اننى سأحصل على المجموع الذى يؤهلنى لدخول كلية الطب - وقد لا أحصل عليه - ولكنى يا ماما في الحاليتين لن ادخل كلية الطب ، هذا ما قررته فلست مهتما ولا راغبا في ان اكون طبيبا . اريد ان ادرس الرسم والتصوير لانى ارغب في ذلك فعلا واجبه وارى فيه مستقبلى وامكانيات نجاحى . لو يقبل أبى الاتفاق على دراستى هنا اكون سعيدا وممتنا بلا حدود وان لم يقبل اعود الى القاهرة لالتحق بكلية الفنون وآتى للدراسة هنا في المستقبل عندما تيسر الامكانية . لا تفضى يا ماما ، لا تقولى سعد ولد عاق ، فكرى فقط انك تريدن لى دراسة ما لا اهتم به واننى اريد دراسة ما احبه ، ربما لو فكرت في ذلك تفرين رايك .

• احبك واحترمك وأفتقدك وارسل لك ولبابا وسوسن سلامى وقبلالى ...

سعد

اعدت قراءة الرسالة وأنا أضغط على أسناني غيظا . اذن عاد السنة ليرضىنى ! انه طفل ولا بد من معاملته كالاطفال . وضعت في حقيبتي رزمة من الأوراق المالية وجواز سفرى ونزلت الى شركة الطيران الفرنسية واشترت تذكرة طائرة ذهابا وعودة واستفرت عن مكان القنصلية الفرنسية واتجهت اليها للحصول على تأشيرة دخول الى فرنسا .

قلت للموظف : « اريد تأشيرة لأسبوع واحد فقط ! »

صباح اليوم التالى ودعنى كمال في المطار ونصحنى بمشاهدة معالم باريس والاستمتاع بوقتي فيها واستفريت كلاه . وهدوءه فهل أنا ذاهبة لقضاء اجازة ؟ أنا في طريقى لانتقاد الولد . يريد ان يكون فنانا . . يافرحه قلبى بالفن والفنانين ! لقد فقد الولد عقله . كانت رسالة سعد في حقيبتي تحمل عنوانه وأنا في مقعدى انتظر ان تهبط بى الطائرة في مطار اورلى . سأستقل سيارة اجرة من المطار الى العنوان فأجد سعد واعيده معى الى القاهرة ، في نفس اليوم ان امكن ! .

هبطت الطائرة وختم لى الموظف الفرنسى الجواز . استسلمت

حقيقتي وغادرت المطار وركبت سيارة أجرة وأشرت للسائق بالعنوان المكتوب على الظرف . الطريق من المطار الى المدينة طويل كأنه بلا نهاية وبعد الحركة المناسبة في الطريق السريع دخلنا الى قلب المدينة حيث الزحام والمرور البطيء . توقفنا مرات عديدة امام الشارات الضوئية الحمراء واخيرا انزلني السائق في شارع مزدحم بالمحلات التجارية واكشاك الجرائد والمارة وأشار بيده في اتجاه أحد الأزقة ففهمت ان العنوان هناك . فقد سعد عقله يقول لا أريد دخول كلية الطب ويسكن في باريس ، مدينة الحضارة والنور ، في حي كحي الموسكى ! البضائع تحتل الارصفة تكاد لا تترك مكانا للمارة ، أحذية ، كتب ، جرائد ، ملابس ، صور . دخلت الزقاق الذي اشار اليه السائق كان مبلطا بحجارة مستطيلة صغيرة الحجم وعلى الجانبين مطاعم صغيرة تعرض في واجهاتها الزجاجية محاشي وأسماك وماكولات بحرية . سألت أحد المارة عن العنوان فأشار الى عطفة الى اليمين دخلتها فوجدت رقم الفندق . فندق ؟! انه خن دجاج وليس فندقا : مدخل معتم صغير به عارضة خشبية تقف خلفها امرأة بدنية بيضاء شعرها الاسود المجعد مفروق من المنتصف وعيناها سوداوان . سألت عن سعد فقالت انه غير موجود « متى يعود ؟ » « لا أعرف » وعندما قلت انني أمه ابتسمت المرأة ابتسامة عريضة فبانت سنة ذهبية في فمها وقالت وهي تمد يدها للسلام على أنها جزائرية وان اسمها رشيدة وكانت تتحدث فرنسية مطعمة بكلمات عربية . خرجت من وراء الحاجز الخشبي وسلمت على مرة أخرى وقالت ان سعدا ولد لطيف وانه لا يتأخر في الليل « ربما يعود بعد ساعة او ساعتين » .

اجلسنتي رشيدة فيما اسمته « صالونا » والذي لم يكن سوى ثلاثة مقاعد قديمة اهترا قماشها ولبى حتى لم يعد ممكنا تحديد لونها الاصلى ثم أتت لى بفنجان شاي وهي تقول انها تحب أغاني أم كلثوم وان أخاها عبد الكريم سمي ابنه جمالا على اسم جمال عبد الناصر . وضحكت فبانت سنننها الذهبية ثم سألتني ان كنت أريد غرفة بالفندق فقلت انني لا أريد فاستأذنت قائلة ان عليها بعض الاشغال .

جلست في انتظار سعد في المكان المعتم الذي اسمته المرأة الجزائرية « الصالون » ما ان يأتي سعد حتى أخذه الى فندق آخر يليق بالبشر ! رايت المرأة الجزائرية تتحدث مع شاب آسيوى ثم

نخرج من وراء العارضة الخشبية ويحل هو محلها . حيثنى وذهبت  
قائلة « لا تقلقى ، لن يتأخر سعد ، الى اللقاء غدا » تابعت حركتها  
الثقيلة وردفيها الممثلين وثوبها القطنى الرخيص وهى تفادر . نظرت  
الى حيث كانت تقف فالتقت عيناي بالشاب الاسيوى الذى ابتسم  
ابتسامة عريضة بلا داع .

كدت اغفو وانا جالسة انتظر وربما غفوت وصحوت على سعد  
يهتف : « ماما ، غير معقول ! » قال انها مفاجأة .

— لماذا لم تقولى لانتظرك بالمطار ؟!

— احزم امتعتك لنذهب الى فندق .

— ولكن هذا فندق — توقف — لا يناسبك اليس كذلك ؟ .  
على اى حال اقضى الليلة هنا معى وفى الصباح نبحت عن فندق  
آخر .

— الآن سنذهب ! احزم امتعتك وقل لهذا الاسيوى ان يبحث  
لنا عن مكان فى فندق من فنادق الدرجة الاولى .

— ولكن ...

— سعد اننى انتظرك منذ ثلاث ساعات . لا أريد ان أنتظر  
اكثر !

كنت مرهقة وحادة المزاج . تحدث سعد مع الشاب الاسيوى  
ثم سعد ليأتى بحقيبتة .

ركبنا سيارة اجرة الى فندق بالشانزليزيه على مقربة من قوس  
النصر . كان الفندق ذا طراز عتيق سقفه عال تتدلى منه ثريات  
الكريستال الضخمة . اعطى موظف الاستقبال مفتاح الحجرة لشاب  
اسمر حمل حقيبتينا واستدعى المصعد فتبعناه . توقفنا فى الطابق  
الثالث . ادار الشاب المفتاح فى الباب فانفتح على غرفة فسيحة بها  
سريران . وضع الحقيبتين وقال « تصحان على خير » وذهب .  
قلت لسعد « الآن سأنام لانى متعبة وفى الصباح نتحدث »  
قال « لم تأكلى شيئاً يا ماما ، الست جائئة ؟ » قلت اننى  
لست جائئة ودخلت الحمام وخلعت ملابسى وفتحت الماء لاثحم .

عدت بسعد الى القاهرة وقال كمال : « هذه اقصر زيارة الى  
باريس سمعت بها » ولم اكن تغيب سوى ٢٩ ساعة . قلت : « لم  
تكن زيارة الى باريس ، كانت مهمة لانقاذ الولد . سعد سيكون طبيباً ،  
افهمته ذلك ، ولا مجال لعبث الاطفال ! » .

سنشئ مستشفى خاصا ، ننشئه على قطعة ارض كنا اشتريناها قبل عدة سنوات لنقيم عليها بيتا بحديقة ولم نفعل . مساحة الارض مناسبة وموقعها ممتاز فهي تطل على النيل فى الطريق الى المهادى . سافر كمال الى المنيا حيث يملك أرضا زراعية وباعها وعاد بحقيبة جلدية صفت فيها الاوراق النقدية رزما ، كل رزمة منها مربوطة بأستك قال « مات عبد الناصر واستقرت احوال البلاد الاقتصادية وأصبح بإمكاننا أن نبدا » .

حديث المستشفى موضوعنا اليومى ، ما تم ، وما سوف يتم . اتفق كمال مع شركة مقاولات لمعاينة الارض ووضع التصميم الهندسى المناسب . مستشفى كبير من عشرة طوابق مزود بأجهزة حديثة وأطباء مهرة وممرضات متمكنات وحديقة بها زهور ومقاعد خشبية مطلية بألوان زاهية . هذا ما يعلم به كمال وما احلم انا ايضا معه . كل يوم اذهب الى موقع العمل . ما ان احتسى الشاى حتى أركب سيارتى وأقودها الى ميدان التحرير ، أتجاوزه ثم انعطف يسارا الى كورنيش النيل . واسير فى خط مستقيم بمحاذاة الشاطئ حتى اصل . أراقب الآلات الضخمة وهي تدك الارض بايقاع منتظم وعال يهيم الاذان . . المساحة متساوية الاضلاع تشبه صندوقا تقائرا فى الارض هي المساحة التى تقام عليها الاساسات . بعد وضع الاساسات بدأوا فى اقامة هيكل المبنى . أكوام من الاسمنت والزمل والزلط وصفات من الطوب تملأ المكان وعمال البناء يشتغلون فى ملابسهم الداخلية الرقعة يتوزعون على الارض وفوق السقالات ، كل شئ يسير كما يجب ! . ستكون المستشفى من عشرة طوابق يخصص الطابقان الاول والثانى للعيادة الخارجية يتوسط كل منهما قاعة واسعة للانتظار تحيط بها غرف الكشف . فى الطابق الاول غرف الكشف الباطنى والجراحة وأمراض النساء والاسنان والعيون وفى الطابق الثانى التحاليل والاشعة ورسم القلب . وفى الطابق الارضى المغاسل والمطابخ . وفى الطابق الاخير سكن الأطباء . أما الطوابق الستة الاخرى ففيها خمسون غرفة مخصصة للنزلاء من المرضى الى جانب الصالات وحجرات الممرضات . وفى مدخل المستشفى بجوار الاستقبال ثلاث محلات صغيرة احدها لبيع الزهور والثانى للحلوى والثالث للمحلات والجرائد .

قلت لكمال اننى مستعدة لتحمل مسئولية الاشراف على تأثيث المستشفى . المهمة صعبة ومرهقة ولا تترك لى ساعة فراغ ولكنى اجد فيها متعة . افاقرن بين الامكانيات والبدائل وأستقر فى نهاية المطاف على التعامل مع محل كبير للاثاث يدمايط يملكه الحاج عبد الرسول سيصنع كل ما تحتاجه المستشفى من أسرة وخزائن وطاولات وسيكلف اثنين من التجارين الاكفاء بعمل دواليب الحائط . اتفقنا على كل شيء المقاسات ونوع الخشب أو المعدن والطلاء والثلث وموعد التسليم .

رغم تعدد مسئولياتى الا اننى اشعر بالارتياح والرضا . التحق سعد بكلية الطب وأصبحت سوسن فى السنة الرابعة بكلية الحقوق وعادت زينب من الخارج مع طفليها . عجبت كيف كبرت خديجة فى العامين اللذين تقيبوها فى الخارج والصغير كريم لطيف وجميل ولكن للأسف لا أتمكن من رؤيته كثيرا . زينب تحتج وتقول اننى نسيتها واننى فى السابق كنت أزورها يوميا والان لو لم تسأل هى عنى وتأتى لرؤيتى لا ترانى . أؤكد لها أن كلامها غير صحيح ، كل ما فى الامر أن المستشفى يبتلع الوقت ابتلاعا !

أذهب كل يوم الى المعادى أتابع العمال وهم يمدون مواسير المياه أسلاك الكهرباء ويبلطون الارضية ويركسون الابواب والنوافذ . سباكون وكهربائية ونجارون ومبلطون يعملون طول اليوم وعلى أن امر عليهم لاشعرهم أن للعمل صاحبا مهتما حريصا ومفتوح العينين . العمال مهملون لا يقومون بواجباتهم الا لو وقف صاحب المصلحة على رءوسهم ، وأنا أقف على رءوسهم .

أستيقظ فى الثامنة وأشرب الشاى مع كمال ثم يذهب هو الى عمله وأعطى أنا التعليمات للطباخ والشغالة بشأن المطلوب للبيت من اكل وترتيب ثم أقود سيارتى الى المستشفى اضغط على بوق السيارة فيهرول عم هريدى البواب ويفتح البوابة الحديدية التى لم يتم طلاؤها بعد . أوقف السيارة امام باب المستشفى وأصعد . امر بالنقاشين فى مراحل مختلفة من العمل ، فى الطوابق الاولى يقومون بطلاء الطبقة الثالثة والاخيرة . يقفون على السلالم الخشبية المزودة وسطل الطلاء فى يد والفرشاة فى اليد الاخرى . تغمس الفرشاة فى الطلاء وتحرك بطول الذراع جيئة وزهايا تضيف على الجدار لمعة سميكة مبللة . اما فى الطوابق العليا فلا زال العمال يصنفرون الجدران بأوراق الصنفرة الخشنة ويمعجنونها . الصببية الصفار يعدون الغراء على مواقع الكيوسين ويخلطون الطلاء فى الاسطل المعدنية . أراقب العمل

واتابع وادقق وابدئ الملاحظات وابنه للعيوب واطلب اصلاحهما وتلافيهما . وعندما انتهى من المرور في الطوابق العشرة انزل الى الغرفة المخصصة لى بالطابق الاول فتأتى لى زوجة عم هريدى بفنجان قهوة . احتسيه وادخن وانتظر ساعة اخرى ادون الاشياء المطلوبة منى ثم اركب سيارتى واعدت الى البيت .

حددنا موعد الافتتاح بعد شهر من انتهاء بناء المستشفى . اشرف كمال مع عدد من الاطباء الشباب الذين يعملون معه على نقل الاجهزة الجديدة التى وصلت من الخارج فى علب كرتونية مغلقة . قاموا بفتحها وتجربتها واشرفت انا على نقل الاثاث وتأكدت أن كل شئ أصبح فى مكانه بما فى ذلك الستائر واصص النباتات والزهور . وجئنا الدعوات لحفل الافتتاح وأرسلت تهنئة الى كمال بهذه المناسبة نشرناها فى الجرائد الى جانب التهانى الاخرى التى بمت بها زملاؤه

فى صباح اليوم المحدد ذهبت الى الحلاق ففعلها صبغة شموى بنفس اللون البنى الفاتح الذى اعتدت عليه فى السنوات الاخيرة وصفقه لى . وفى الرابعة بعد الظهر لبست ثوبا جديدا من الدانتيل الاسود وتزينت وتعطرت وتحليت بعقد الماس والاسورة والحلق الماسيين . لبست حذاء من الستان الاسود والقيت نظرة اخيرة على المرأة « ما رأيك ؟ » أجاب كمال « رائع ، الملكة فريدة فى زمانها لم تكن أكثر أناقة ! » ضحكت وقلت انه يبالغ ولكنى سعدت بالملاحظة .

ركبنا فى المقعد الخلفى وقاد بنا السائق السيارة الى المستشفى ... وكانت البوابة الحديدية المطلية حديثا بطلاء أسود لامع مفتوحة على مصراعها يقف بجوارها عم هريدى وقد لبس جلبابا رماديا جديدا وعمامة بيضاء ناصعة . بداخل المستشفى وجدنا عددا من الاطباء والمرضات وزينب ومجدى وسعد . سألت عن سوسن « كانت هنا ، ربما نزلت الحديقة » ثم رأيته ، صعقت ! كانت البنت المجنونة قد آتت بالصندل وقستان قطنى من الفسنتين التى تذهب بها الى الجامعة . انتحيت بها جانبا ووبختها قلت « عودى الآن فورا الى البيت غيرى ملابسك وأرجعى ! » تركتها وذهبت لا وقت لدى للتعامل مع جنونها . لماذا لم تفعل كزينب ؟! جاءت زينب بثوب من الحرير الطبيعى الكحل مفتوح النحر وبلا أكمام يبرز بياض بشرتها وكانت تتحلى بعقد من اللؤلؤ الحر يناسب دكنة الثوب ، بدت جميلة وراقية ، تشرف .



بدأ الضيوف يتوافدون ثم وصل المحافظ فالوزير وبدأ كمال يريهم أقسام المستشفى وتجهيزاتها ورحنا ننتقل من طابق الى طابق ومن حجرة الى حجرة وعلق الوزير ضاحكا « ذوق خديجة ملموس في كل ركن ! » الوزير صديق قديم كثيرا ما دعوانه الى العشاء في بيتنا قبل ان يصبح وزيرا . كمال يقول انه طبيب متوسط الامكانيات ولكنه ماهر جدا في العلاقات العامة .

في السادسة الا خمس دقائق كنا في طريقنا الى « التراس » لتناول الشاي . قال المحافظ عندما وصلنا « ولكنه أكثر من مستشفى انه مزيج من مستشفى وفندق فاخر ! » فضحك كمال وقال « هذه أفكار خديجة » ابتسم لي المحافظ فرددت بالابتسام . كان المقهى جميلا فعلا على سطح المبنى تحيط به من ثلاث جهات أصص من زهور الفل والبانسيه موضوعة في حوامل مستطيلة من البلاستيك المثبتة بمحاذاة السور . وكانت الموائد الصغيرة قد أزيحت جانبا ووضعت بدلا منها مائدتان كبيرتان على كل منهما مفرش ابيض . واحدة منها تحمل الفناجين والاطباق والسكريات واللبانات والاطباق بها اكياس الشاي والقهوة والثانية عليها قطع الحلوى والمملحات وكان هناك أربعة شباب يلبسون سترات بيضاء يقومون على خدمة الضيوف .

في السابعة والنصف ودعنا اخر الضيوف وقال كمال انه بإمكاننا أن نشرب فنجال قهوة في هدوء قبل أن ننتقل الى الفندق للعشاء . قالت زينب ان كل شيء تم بأفضل شكل ممكن فعلق مجدى ضاحكا « طول عمرى اقول ان خديجة مستبدة رائدة ! » ضحك كمال وزينب ولكنى لم أضحك فهل قصد مجدى الاطراء أم الذم ؟ قال كمال موجها كلامه لسوسن التى كانت قد عادت بثوب لائق « لا أدري ياسوسن لماذا لا تتزينين ، شيء بسيط من الزينة يجعلك كالاميرات » وضحكت « ولكنى سأكون محامية وليست أميرة ! . هل رأيت أميرة تلبس روب الحمامة ؟ ! » قال لها وهو يضحك ان لسانها طويل فأجابته مداعبة « وهذه أيضا من صفات المحاميين ! » سوسن بحاجة لرعاية مستمرة . لو تركت لسانها لاصبحت كالهيبين مهوشة الشعر رثة الثياب . ابوها على حق ، حين تفتنى بملابسها يصبح واضحا انها بنت ناس ولكنها عنيدة . قال كمال لسعد « كان حلمى دائما أن أبني هذا المستشفى . في الخمسينيات كنت شابا ولم يكن لدى لا الاسم الذى يسمح ولا المال الذى يكفى . وفي الستينيات طلّعوا علينا بموال الاشتراكية فلم يعد الواحد منا يأمن على الخاتم في أصبع زوجته ثم أنقشمت الغمة وعشت لاحقق حلمى . حين تتخرج من كلية الطب ياسعد

وأراك تدبر هذا المستشفى ساكون قد حققت كل شيء . ساعتها اضع رأسى فى هدوء وأموت مرتاحا « احمر وجه سعد وعابت كمال على هذا الكلام الحزين الذى لا داعى ولا معنى له . قلت وأنا أنظر لساعتى أن علينا التوجه الى الفندق لكى نكون باستقبال ضيوفنا .

أنا وكمال وسعد ركبنا سيارتنا السوداء التى يقودها السائق اما زينب وسوسن فذهبتا مع مجدى فى سيارته . عندما خرجنا من البوابة الحديدية رفع عم هريدى يده بالتحية رأيناه يفلق البوابة بالسلسلة الحديدية .

بنسب الطريق لمدة كيلو مترات ثم يزدحم وعندما نصل مصر القديمة يختنق . يتحرك صف السيارات الطويل فى بطء ثم يتوقف ثم يعود يتحرك كزاحفة معاقة . النيل عن يسارنا غارق فى الظلام تحدد ضفتيه أضواء الكورنيش ومسالك جزيرة الروضة . وعن يميننا صف الحوانيت الصغيرة الرثة وبعض المقاهى . يبقى الطريق مزدحما حتى نصل الى كوبرى الملك الصالح نعبره ونواصل عبور شارع الروضة الى كوبرى عباس فميدان الجيزة وفقط عندما نقطع النفق يخفف الزحام ويتمكن السائق من قيادة السيارة بسرعة عادية . الشارع واسع تنساب فيه حركة المرور حتى تبدو لنا الاهرام كتلال داكنة فى الليل . ينحرف السائق يمينا وبعد دقائق يتوقف امام الفندق الكبير بجوارنا يتوقف مجدى بسيارته . نزل ونقترب من الباب الزجاجى فينفتح آليا . ندخل الى حيث الهواء المكيف والبرودة المنعشة .

اقول اننى سوف ادخل الى دورة المياه لاصلاح زىنتى «وأنا أيضا» تقول زينب وتصحبنى . ندفع الباب الكحلئ المثبت عليه شكل معدنى لوجه امرأة نتجه الى الاحواض اولا . اغسل يدى وابلل منديلا ورقيا أمسح به وجهى . تحذو زينب حذوى . ثم ننقل الى المرايا . تجلس كل منا امام واحدة وتفتح حقيبة يدها وتخرج عدة زينتتها ، كريم الوجه والبودرة وأحمر الشفاه والكحل وظل العينين ومزيل العرق والعطر . تنزين ونصفف شعرنا وننظف ثم ندفع الباب الكحلئ ونخرج لنلحق بكمال وسعد ومجدى وسوسن وننتظر معهم الضيوف .

ضيوفنا ستة الدكتور سالم وزوجته وابنتهما ، الدكتور منير الذى عاد مؤخرا من السعودية وزوجته وطبيب شاب يحبه كمال كثيرا ويقول انه ممتاز اسمه هلال . وصل الدكتور سالم فى موعده بالديقة . رأيته عبر الباب الزجاجى يقترب بخطواته الثقيلة متكئا على ذراع زوجته . قال وهو ينحنى ويقبل يدى كمادته «اهلا بالملكة» ضحكت وسلمت على زوجته احسان وقبلتها أما رائدا فضممتها الى صدرى وأنا

اقول اننى كل مرة أراها أجدها كبرت قليلا واحلوت كثيرا . لرندا  
كفاء أبيها وجمال أمها ورقبها فى الهندام والسلوك وأنا أحبها كثيرا .  
لم ننتظر طويلا . جاء الدكتور منير وزوجته فى نفس الوقت مع  
الدكتور هلال . كنت أعرف منيرا جيدا ولم أكن رأيت هلالا سوى  
مرتين . أما زوجة منير فكانت المرة الأولى التى كنت أراها . فاجأتني  
بثوبها المقصب اللامع وغطاء رأسها الاشبه بعمامة مطرزة عليها وردة  
هائلة على جانبها الايمن خيوط القصب . التقت عيناي بعينى زينب  
ولكنى تمالكت نفسى وابتسمت مرحبة وأنا أدعو الجميع للطابق العاشر  
حيث المطعم .

وجدنا المائدة بانتظارنا تحمل بطاقة العجز وعليها مفرش فستقى  
منشى وفوط بنفس اللون مطوية طويات صغيرة طويلة ومثبتة من أسفل  
كل بحلقة فضية ومنشورة من أعلى فى شكل مروحي . الاطباق  
والاكواب والفضية منسقة بالشكل اللائق توسطها مزهرتان باللوريتان  
بكل منهما وردة بلدية حمراء وبينهما شمعدان من فضة به ثلاث شموع  
مضاءة . وكانت المائدة ملاصقة للمربع المخصص للرقص والعرض  
الفنى . جلسنا ، كمال على رأس المائدة وعن يمينه الدكتور سالم وعن  
يساره احسان ، بجوار الدكتور سالم جلست زينب فالدكتور منير ثم  
سوسن فالدكتور هلال . وبجوار احسان جلس مجدى فزوجة منير ثم  
سعد فراندا وجلست انا على الرأس الاخر للمائدة . جاء النادل  
بعضير البرتقال ثم وزع علينا قائمة الطعام لاختار ، اخترنا . ضوء  
خافت وعزف ناعم والدكتور سالم يقول : « أحسننت يا خديجة  
الاختيار » ثم يضحك « ولكن قولوا لى هل هى مؤامرة تجلسونى فى  
أقصى مكان ممكن عن خديجة ؟! » الدكتور سالم راقى ومهذب تعلم فى  
أوروبا وظل محتفظا رغم سنه بالسلوك الاجتماعى المنمق . يحيى  
النساء بتقبيل ايديهن ويعرف كيف يقول لهن كلمات الاطراء الرقيقة  
واحسان راقية مثله تعرف كيف تلبس وكيف تضع المساحيق ، كيف  
تتحدث ومتى تتحدث لو تطيع زوجة منير بشيء من اناقته . كدت  
أضحك من هذه الطاقية التى وضعتها على رأسها ومن الاحمر المؤذى  
التى صبغت به شفتيها . أتى النادل بالطعام . ترى أين ذهب مجدى؟!  
ناكل ، عاد مجدى وبدا هو أيضا يأكل .

قال الدكتور منير انه سمع أن فؤاد سراج الدين قدم طلبا لتشكيل  
حزب الوفد من جديد قال كمال ضاحكا « وهل ما زال به رمتق ؟! »  
فاعترض الدكتور سالم وقال بجدية شديدة « لا تخطيء يا كمال انه  
الوحيد المؤهل لقيادة البلاد » . ضحك سوسن فسألتها بصوت

هامس « لماذا تضحكين ؟ » فقالت « تذكرت شيئا مضحكا » واصل الدكتور سالم « لو سمح السادات بتكوين حزب الوفد يكون أثبت أنه ديمقراطى فعلا ويكون حقق للبلد ثلاثة انجازات عظيمة : الانفتاح والديمقراطية والانتصار على اسرائيل فى حرب أكتوبر » فقال الدكتور منير نسيت انجازا آخر يا دكتور : « طرد الخبراء السوفيت من مصر » وقال كمال « باختصار أعاد مصر الى الدنيا . كان الآخر قد دفنوها بالحياة ! » هلال ينظر الى سوسن نظرات مختلصة ، لاحظ ذلك . يقول عنه كمال انه شاب ممتاز ، خجول وقليل الكلام ولكنه جراح موهوب وابن ناس . راندا تتحدث مع سعد بطلاقة وبساطة ، أحب هذه البنات ، تابعت نموها منذ كانت طفلة فى الخامسة ، كانت دائما ذكية ولطيفة المعشر . يحتل العازفون أماكنهم ويسعدون فى عزف موسيقى راقصة . قام بعض الجالسين للرقص . وقال الدكتور سالم وهو يضحك « قم يا كمال أرقص مع خديجة والا قمت أنا » وكان يمزح لانه يمشى بصعوبة متكئا على عصاه أو مستندا الى ذراع احسان فقال كمال « منذ شهر اكملت الستين ، راحت على يا دكتور سالم . قم أنت ياسعد أرقص مع راندا » قام سعد ليراقص راندا . وقال مجدى بشكل مفاجئ « وأنا سأرقص مع خديجة ! » وتطلعت اليه باندھاش ولكنه قام من مقعده ووقف بجوارى وأمسك بيدي فمتمت . قلت له وأنا اتبعه الى دائرة الراقصين « ألم يكن أنسب أن تطلب زينب للرقص أولا ؟ » فأجاب « سأرقص معها بعد ذلك » يحيط مجدى خصرى بذراعه اليسرى ويضع يده اليمنى على كتفى ، يراقصنى ويقود خطوتى بقوة ويسر . وجهه قريب من وجهى ، أقرب مما ينبغى . أشعر بأنفاسه . أسأله « هل شربت يا مجدى ؟ » قال « ماذا أفعل ان كنتم بخلاء ؟ لا تقدمون لضيوفكم مشروبا ؟ ! » قلت « لو عرف كمال انك تقيبت عن المائدة لتذهب الى البار لفضب منك » قال وهو يضحك « هذه اول مرة أرقص فيها معك ، هل تعرفين ذلك ؟ » قلت وأنا أبتسم « اعرف ! » وهل تعرفين انك أجمل امرأة رأيتها فى حياتى ؟ » تركت يده وقلت له بصرامة « مجدى أنت سكران ! » فضحك وقال باحتجاج « وأقول هذا الكلام لانى سكران ؟! حرام عليك . هذا رأى منذ ثلاثين سنة منذ رأيتك تتزينين للقاء كمال يوم جاء لخطبتك وقالت لى أمك روح يا شاطر عند جدتك ولما روحت بكيت وقلت لجدتى اشمعنى أحمد يقابل العريس ويجلس مع خديجة وهى جميلة هكذا ، ساعتها ضحككت جدتى منى تماما كما تفعلين الان » ضحككت ولكن مجدى لم يضحك وشعرت بذراعه تلتف على خصرى بقوة أكثر ، كان جسده

قرب مما يجب . قلت « يكفي يا مجدى ، لنعد الى مقاعدنا » قال « ولكنى أريد أن أرقص معك ! » قلت « وأنا أريد أن أعود الى مقعدى ! » ولم أنتظر . خرجت من دائرة الراقصين وتبعنى . هل مجدى ثلثام أن هناك ما يربكه ويجعله هشا ؟ هل لا تعطيه زينب ما يحتاجه ؟ انه مرتبك ومربك .

لم يطلب هلال سوسن للرقص بل طلبها سعد ولم يطلب مجدى زينب فقلت بصوت عال : « قم يا مجدى ارقص مع زوجتك » فقام . وعندما انتصف الليل قامت فرقة العازفين المصاحبة للرقص الغربى وحلت محلها فرقة شرقية لمصاحبة البرنامج الفنى . قام مجدى فلحقت به وقلت له بصرامة « او ذهبت الى البار مرة أخرى فسأقول لكمال ، وقد يوبخك أمام كل المدعوين ! » فاجاب « خديجة لماذا لا تتركينى وشأنى ! » وتركنى وذهب .

ظهرت الراقصة وبدلنا مواقع مقاعدنا قليلا حتى تتمكن من المشاهدة . للراقصة شعر أسود طويل يصل الى منتصف ظهرها ووجه مثقل بالمساحيق وثوب قماشه لامع وسميك فيما يغطى الثديين والردفين أما ما عدا ذلك فغلالة رقيقة تشف عن تفاصيل الجسد . ترقص حافية القدمين على ايقاع الطبال وضارب الدف . تبرز الساق اليمنى من أعلى الفخذ حتى القدم العارية من تحت ثنيات الثوب تدق الارض بحركة تواكب اهتزاز الكتفين خضخة الثديين وتقوس الذراعين ولحم البطن العارى يتموج ويرتج . قال كمال « اول مرة شاهدت فيها راقصة بلدية أصابنى الذعر ! » ثم وهو يضحك « مارايك ياسعد ؟ » فتمتم سعد بشئ غير مفهوم واحمر وجهه . قالت زوجة الدكتور منير « الرجال يحبون الرقص البلدى لان عيونهم فارغة ! » فلم يعلق احد على كلامها . هذه المرأة تكسف فى لبسها وحديثها . تقترب الراقصة منا وتصعد فوق مائدتنا وترقص عليها ويتطاير ذيل ثوبها الشفاف فى وجهنا فنضحك ونصفق لها على الواحدة والنص وهى تهتز وتمايل وتنشئ وتدور وتقفز وتلف وترتجج فى حسية بالغة . ثم قفزت الراقصة بليونة من فوق مائدتنا وانتقلت الى مائدة أخرى وقالت احسان « أين ذهب مجدى ؟ » ضاعت فرصته فى المشاهدة وقال الدكتور سالم « هذه الراقصة موهوبة » ثم وهو يكلم راندا يتسما « ما رأيك يا راندا ، سندهوها لى ترقص فى فرحك ! » فسألت زوجة الدكتور منير « هل راندا مخطوبة ؟ » فضحك الدكتور سالم « ليست مخطوبة » فضحكت أنا وقلت « ألف من يتمناها وأنا أولهم ، ما رأيك يا راندا ؟ » فابتسمت راندا واحمر وجهها وكذلك سعد أحمر وجهه ولكنه لم يبتسم .

لم يظهر مجدى الا ونحن على وشك المغادرة ولاحظت احتقان وجهه  
« هذا المجنون ، أسرف في الشراب ، فكيف يقود السيارة الآن ؟ »  
دعنا ضيوفنا وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل  
كان السائق فى السيارة قد أغفى مستندا برأسه الى المقود . دق له  
سعد على نافذة السيارة فانتبه ونزل ليفتح لكامل الباب . قلت لكامل:  
« يبدو أن مجدى متعب ، سأقود أنا سيارته تصالوا أنتم ورائى حتى  
بيت زينب فأركب معكم » ركبت سوسن وسعد مع كمال والسائق  
وقدت أنا سيارة مجدى . جلست زينب بجوارى ومجدى فى المقعد  
الخلفى . كانت زينب تلتفت اليه وتكرر السؤال عن حالته ولماذا  
لم يقل انه متعب . قلت : « ليس متعبا ، السيد المحترم كان يتركنا  
ليذهب الى البار ويشرب ، انه سكران ولو تركته يقود السيارة  
فستنتهى الليلة بكارثة » قال مجدى : « خديجة أنا أحبك فلماذا  
تكرهينى ؟ » زجرت زينب أما أنا فلم أجبه .

لا وقت لدى للراحة ، لا وقت ! يأخذ المستشفى كل وقتى .  
أذهب اليه كل صباح ولا أعود الا بعد الظهر وأحيانا أعسود في  
المساء . أشرف على كل شئ ، الأكل والنظافة والنظام ورعاية  
المرضى . فقط يوم الجمعة لا أذهب . أصف شعري عند الحلاق  
ثم تأتى زينب وأولادها ونجتمع على مائدة الغداء . كمال يقول  
« أنت الكل فى الكل » فى المستشفى أيضا يقولون ذلك . أحب  
ان يسير العمل بانضباط الساعة ودقتها . المستشفى مؤسسة  
كبرى لها اسمها وسمعتها والمرضى يأتون اليها ليس من مصر وحدها  
بل من كل البلاد العربية . ابنة رئيس الجمهورية وضعت عندنا  
ورئيس الجمهورية زارنا وتعرفت عليه وقدمت له الشيكولاته  
وشربت معه القهوة ووجدته رجلا لطيفا جدا ومهدبا واستغربت  
ان يكون له أعداء ومعارضون . أميرة سعودية أجريت لها جراحة  
ناجحة عندنا وشخصيات كبيرة ومتنفذة تأتى عندنا لأن الكل يعرف  
انه فى الخدمة الطبية وفى النظافة والترتيب نحن الأكثر تفوقا .  
يقولون اننى صارمة ولكن الادارة تتطلب ذلك . لا اطيع بؤية ممر  
غير نظيف ولا ممرضة مهوشة الشعر ولا عاملا يأتى متاخرا خمس  
دقائق . نحن ندفع أعلى الرواتب ومن حقنا ان نحصل على أفضل  
نوعية من العاملين . المهمل انهى خدمته ، بلا طول كلام ، الصرامة  
لازمة ونتائجها واضحة والذكاء ضرورى كذلك الحساسية فى  
التعامل . وردة وكمكة صفيرة مع بطاقة تهنئة للأم صبيحة يوم  
الولادة ، زيارة سريعة مع كلمة طيبة للمريض بعد العملية . منذ  
افتتحت المستشفى لم تحدث مشاكل ، المشاكل أنهىها قبل ان  
تصبح مشاكل . مرة واحدة فقط لم اتمكن من محاصرة الامر .  
مريض وقع أجريت له عملية وأمضى بالمستشفى عشرة ايام كاملة  
عند المفادرة طلبوا منه عشرة آلاف جنيه فقال « لماذا ؟! » أوضحوا  
له ان المبلغ مقابل الفحوصات والتحاليل التى أجريت له قبل  
العملية وبعدها والعملية نفسها والاقامة والرعاية الطبية . علا صوت  
واتهمنا بالسرقة فطلبنا له الشرطة . يجب ألا نتعامل مع هذه النوعية  
من الناس هذا المستشفى محترم ولا بد ان يقتصر على المحترمين  
ومن كانت امكانياته المادية لا تسمح فليبحث لنفسه عن مكان آخر .

انا نصرف على المستشفى بسخاء فهل نعمل بلا مقابل ؟ والاموال الطائلة التى وضعها كمال فى المشروع هل تذهب كأنها ضاعت منه فى الطريق . اليس من حقه أن يسترد شيئا منها ؟! لسنا ملجأ ولا مشروعا خيرا . انا مستشفى محترم للناس والمحترمين .

قلت لكمال ان اهلنا ، اهلى واهله ، قد دعوا لنا وان الله يوفقنا فى كل شىء والمستشفى يحقق نجاحا مدهشا ليس فقط فى السمعة والمكانة ولكن ايضا فى الدخل الذى يدره . وسعد الله هدها والتحق بكلية الطب وزينب سعيدة مع مجدى والصغيران ممتازان وسوسن تخرجت من كلية الحقوق . علينا أن نذهب للعمرة ونزور قبر الرسول ونصلى فى الحرم ونسجد حمدا لله الذى لم يبخل علينا بأى شىء . نخطب لسعد ونزوج سوسن وبعدها نسافر للعمرة أو ربما حتى للحج « مارايك فى راندا لسعد ؟ » قال « وما داعى الاستعجال ، اتركه حتى يتخرج من الجامعة » فقلت له « ان راندا لن تنتظر وقد يخطبها غيره فنندم على تأخرنا » ولكننا لانعرف رأى سعد « اقنعت كمال بأن يترك الامر على ، لن يقول سعد لا ، ولو قالها فلن يكون لديه سبب سوى العناد فراندا جميلة وبنت ناس ولا يمكن لعاقل الا ان يتمناها .

لم يبد على سعد الحماس ولكنى اقنعتة وذهبت مع كمال لزيارة الدكتور سالم وطلبنا البنت . قرانا الفاتحة واتفقنا على كل شىء .

سعد وردتى وهو الاقرب والاغلى والاحلى . فى ليلة خطبته كنت اطلع اليه فتملا عيني الدموع وتأتبنى صورته وهو قطعة لحم صغيرة ودافئة بين ذراعى واكاد اشعر بفيض الحليب فى ثدى وبالفم الصغير يرضع منه . ليسعدك الله ياسعد ويملا أياك بالفرح وتصبح اعظم طبيب فى البلد .

عندما اليس سعد راندا خاتم الخطبة وخاتم الشبكة خلعت انا عقد الماس الذى كنت اتحلى به وأحطت به عنق راندا . بكى احسان تأثرا وقالت ان هذا كثير فاجبتها وانا ابتسم ان راندا ست البنات ولا شىء يكثر عليها .

لم يبق اذن الا ان أزوج سوسن . كنت افكر فى ذلك وانا فى طريقى الى المستشفى وعندما وصلت قالتلى سكرتيرتى ان « فؤاد ييه » فى انتظارى فى المكتب . توقعت ان تكون زيارة لعمل بعض الفحوصات . كان الرجل الذى يشغل منصبا كبيرا فى الدولة قد دخل المستشفى قبل فترة وأجرى له كمال جراحة ثم وضعت



ابنته طفلها عندنا فأصبحت تجمعنا علاقة ود وتزاور عائلى . دخلت المكتب فقام ليصافحنى . كان طويلا يميل الى الامتلاء يلبس كمادته قميصا ابيض وبدلة داكنة من ثلاث قطع وربطة عنق حريرية ، كان هيئته تشى بالاهمية والاحترام . بدأ بالاعتذار لانه جاء بلا موعد قال « انتم ناس طيبون . الدكتور كمال طبيب عظيم وانت سيدة فاضلة . فكرت ان أحدث الدكتور كمال فى الامر ثم عدلت وقلت انك قد تكونين اقدر على التصرف » اتى السامى بالقهوة فتوقف فؤاد بيه عن الكلام . « اقدر على التصرف ؟! » استوقفتنى العبارة وبدأت اتوجس . كنت اظن الرجل جاء قاصدا خدمة . أغلق السامى الباب فواصل فؤاد بيه « باختصار ياسيدة خديجة كنت مع صديق حميم بوزارة الداخلية وبالصدفة جرنا الكلام الى الحديث عن الدكتور عبد الموجود اسماعيل وهو أستاذ فى كلية الحقوق . قال صديقى ان هذا الأستاذ مشاغف ولن يردعه سوى الاعتقال فقد جمع حوله مجموعة من الشباب كانوا طلابه وهو يلتقى بهم بانتظام بشكل مشبوه ولذلك فقد ادرج اسم الأستاذ وكل المترددين عليه فى قوائم بوزارة الداخلية » كنت اشعر بغصة فى حلقى وجفاف فى فمى واعرف ما الذى سوف يقوله الآن : « ولقد ذكر لى صديقى بعض أسماء هؤلاء المحامين وأدهشنى جدا ان أجد اسم سوسن ابنتك بينهم . تصورت ان هناك تشابها فى الاسماء ولكن صديقى أكد لى أنها سوسن ابنة الدكتور كمال وانها فتاة مشاغفة مشاكلها كثيرة منذ كانت طالبة بالجامعة ولها ملف بالمباحث . طبعا رجوت صديقى ان يعمل على شطب اسمها » او اخفاء الملف لانه فى النهاية هذه البنت ابنتنا . ساكلم اهلها ليتصرفوا معها » كان يجب الآن ان أقول شيئا ، لم اكن أعرف ما الذى يمكن ان اقله . شكرت فؤاد بيه بحرارة وقلت له ان تصرفه كرم لن أنساه طول حياتى . سلمت عليه وودعته حتى باب المستشفى وأنا اكرر شكرى وامتنانى وأؤكد له ان البنت طائشة وغير مسئولة وانى سأعاقبها وأؤدبها وأعلمها كيف تتصرف كأولاد الناس المحترمين .

غادر الرجل وعدت الى مكتبى طلبت فنجان قهوة وقلت للسكرتيرة اننى لا أريد ان أقابل أحدا . كان على ان استجمع نفسى قبل ان افعل أى شئ .

سوسن مجرمة خدعتنى وخانت ثقتى فيها أوهمتني أنها ارتدت عن عنادها وسلوكها المراهق وهى على حالها لم تتغير . قال فؤاد بيه ان مشاكله كثيرة من أيام الجامعة . وزارة الداخلية

تعرف عن ابنتي اكثر مما اعرف . ماشاء الله وانا آخر من يعلم !  
لو صفعتها الف مرة ماشفيت غليلي . تقوم بنشاط مشبوه ؟! انها  
مجنونة .. اناية لا تفكر في سمعتها ولا في سمعة ابها . ماذا يقول  
الناس : ابنة كمال صفوت على علاقة بالصعايك الذين لا عمل لهم  
سوى معارضة الحكومة . ومن اين اتت بهذا الطيش ؟! لم يحدث  
ابدا في عائلتنا ولا في عائلات المعارف ان خرجت بنت بهذا الشكل  
عن الصراط المستقيم . لا بد ان اعرضها على طبيب نفسى قد تكون  
مختلة عقليا . فماذا نفعل في هذه الحالة ؟ هل نودعها مستشفى  
للأمراض العقلية ؟ لا داعى للفضائح ، من يتزوجها بعد ذلك ثم ان  
الامر قد تنسحب عواقبه على خديجة ابنة زينب وبنات سعد فى  
المستقبل . ولكنها ليست مجنونة انها ذكية وربما كانت اكثر اولادى  
لماحية فما الموضوع اذن ؟ طيش ؟ عناد عدم تقدير للمسئولية ؟  
كانت مراةة وكان ابوها يقول لى مرحلة وتمر ولكنها طاللت ، طالت  
بعالا يحتمل . عندما كنت فى سنها كنت مسئولة عن بيت وزوج  
وثلاثة اطفال فماذا افعل ؟ هل احبسها فى البيت ؟ انها فى الخامسة  
والعشرين .. فكيف احبسها فى البيت ؟! سأقول لها ياسوسن  
اما ان تحترمى هذا البيت الذى تعيشين فيه وتحترمى اهله  
وسمعتهم او تتركه ... وماذا لو تركته ؟ كيف تتركه ؟ هل هى  
فوضى ؟ اليس لها اب وام ومجتمع يحكمها ؟ ليست حرة تفعل  
ما تشاء . اتها ابنتى وعليها ان تطيعنى بالشرع والعرف والقانون !  
وماذا اقول لكمال ؟ لم تعد صحته كما كانت وعلينا مراعاته .  
قد يضارب بلذبة من خبر كهذا . انه مستنير ومترن ، هذا صحيح ،  
ولكن اى اتزان هذا الذى لا يصدمه معرفة ان ابنته تصادق اشخاصا  
على قوائم المشبوهين الذين تريد الحكومة وضعهم فى السجن ! لو  
انه جبل لتفتت من الخبر وهذه ابنته ، سمعته وشرفه وعرضه !  
لن اقول له ، سوف اتصرف انا معها .

لاحظت ان المنافض الكبيرة الثلاث التى امامى امتلات بأعقاب  
السجائر وكذلك الفناجين الاربعة التى شربت فيها القهوة . غادرت  
المستشفى وركبت سيارتى عائدة الى البيت .

عندما عادت سوسن الى البيت لم اقل شيئا ، تركتها تقبل  
وحتى كعادتها قلت دون ان ارفع راسى لانظر اليها اننى اريد ان  
اتحدث معها بعد الظهر . قالت « نؤجله للمساء لان لدى مواعيد  
» فاجبتها بقطع ادركته « الفى مواعيدك ، انه امر ضرورى ! »

وجلسنا لتناول الغداء . لم اخاطبها ولم ارفع عينى فى اتجاهها .  
ولما ذهب أبوها الى عمله ناديتها الى حجرتى وجلست على أحسد  
المقعدين الوثيرين المقابلين للسريـر وطلبت منها أن تجلس على المقعد  
الثانى :

- اسمعى ياسوسن لقد عرفت أن الدكتور عبد الموجود اسماعيل  
شخص سيء ومكتبه مشبوه وباختصار أريدك ألا تتصلى به ولا بأى  
شخص يكون على علاقة به .  
- لا أفهم

- زارنى اليوم صديق مرشح للوزارة وله معارف وأصدقاء  
من الوزراء وقال لى بوضوح أن الدكتور عبد الموجود وكل من حوله  
لهم نشاط ضد الحكومة وأن الحكومة لن تسكت على الأمر وقبال  
أن اسمك وأسماء زملائك مسجلة فى قوائم فى وزارة الداخلية وأنهم  
قد يقبضون عليكم فى أى وقت .

- ولكن ما علاقة هذا الكلام بما قلتيه من أن عبد الموجود  
اسماعيل سيء السمعة ؟

- العلاقة واضحة كالشمس . الرجل سيء السمعة لدى  
الحكومة !

- عبد الموجود اسماعيل أستاذ جامعى محترم وهو كاتب من ..  
- لا أريد أن أسمع دفاعا عن هذا الشخص ولا أريد أن أناقش  
الأمر أصلا . أريد شيئا واحدا فقط : اقضى كل علاقة لك بهؤلاء  
الناس حل تفهمين ؟!

هذه البنت ليست بسيطة ولا سهلة انها تحدى فى كائنى اطلب  
منها أمرا مستحيلا .

- اختارى ياسوسن اما انا او هم !

- ماما لماذا تعقدين الأمور ؟

هذا النقاش يجب ألا يستمر ، لصبرى حدود ولا أريد أن  
أضربها فمت لأترك الغرفة وقلت وأنا أقف بالباب :

- انى اعطيك مهلة اسبوعا ليوم السبت .. السبت القصاد  
انتظر اجابتك اما انا او هم ... هل تسمعين ؟!

فى اليوم الثانى اتصلت بعبد الموجود اسماعيل وطلبت مقابلته .  
حدد لى موعدا فذهبت اليه . كان مكتبه مؤثما ومرتبيا بما ينم عن ذوق  
رفيع وفاجانى ذلك كما فاجانى الرجل نفسه الذى كنت أظنه اكبر  
سنا . كان فى عمر مجدى تقريبا له جسم رياضى ووجه متسق  
القسمات وعينان ثاقبتان . قلت :

- هي المرة الأولى التي نلتقي  
قال :

- قد لا تذكرين ولكني قابلتك مرة في المستشفى وكنت أعود  
صديقا لي هناك .

ابتسم وابتسمت ثم مرت ثوان من الصمت . لابد من الدخول  
مباشرة في الموضوع . قلت :

- يادكتور عبد الموجود ، أقصدك في خدمة . أنت استاذ ومرب  
وكاتب كبير تتمتع بسمعة ممتازة ولك مواقفك السياسية الواضحة  
ولكننا أسرة لم يكن لاي من افرادها علاقة بالسياسة . كان أبي رحمه  
الله صيدليا وزوجي الدكتور كمال صفوت جراح وزوج ابنتي مهندس  
وابني في كلية الطب وسيصبح طبيبا كإبيه . اننا نخدم بلدنا بعيدا  
من السياسة . وعندما التحقت سوسن بكلية الحقوق لم اتصور  
قط انها سوف تورط نفسها في أي نشاط سياسي ولكنها تورطت  
وواضح انها الآن بعد تخرجها تزداد تورطا . أنت أستاذها ولقد  
قصدت لك تنصحتها أو على الأقل تتركها وشأنها فهي بنت ونحن  
كأسرة لا نحتمل أن ندخل ابنتنا السجن أو تصاب بأذى .

- هل طلبت منك سوسن ذلك ، هل جئت نيابة عنها ؟

- جئت نيابة عنها لأنني أمها !

- لا أفهم !

- أقصد انني وأبوها وأخوها لا نريد أن يكون لها أي ارتباط  
بالسياسة ولا بأصحاب النشاط السياسي لأننا نخشى عليها .

هذا الرجل ثعلب مراوغ . تلمع عيناه ويتحدث ببرود :

- لم تعد سوسن صغيرة ياسيدة خديجة . اتركها إذن لتدير  
حياتها كما تريد - ابتسم - ابنتك محامية ، هل تريد ان تدافع  
عن حقوق الناس وتفترط في حقوقها ؟!

قررت أن أنهي اللقاء ، لا فائدة ، قلت وأنا أقوم للمفارقة :

- ليس من حقها أن تؤذي نفسها وتؤذي معنا !

لم يكن هناك جدوى من النقاش ، انه رجل سيء ، وقد يكون  
هو الذي ورط البنت في العمل بالسياسة . ودعته بايماءة من رأسي ،  
لم أمد يدي لمصافحته . كان يجب أن أخيفه وأرهبه وأقول له ان  
اسمه على قوائم المشبوهين وأنه قد يقبض عليه في أية لحظة .  
لا يريد أن يترك سوسن وشأنها .. سأريه إذن !

طوال الاسبوع لم اكلم سوسن . كنت اتحاشى التقاء عيوننا ،  
لا انظر في اتجاه تجلس فيه ، ان دخلت على في غرفة تركتها كائننى  
لم ارها ، لا اسمع ما تقول ولو سمعت لا اعلق كائننى لم اسمع  
حتى كان يوم السبت . ناديت عليها وسالتها :  
- ماذا قررت ؟

- لم اقرر شيئا  
- سوسن انا لا امزح ولا العب قلت لك ان امامك اسبوعا للتفكير  
والاجابة فماذا قلت ؟  
تنظر الى كانها لا تخشائى ، كانها لا تهتم ، باردة بشكل مثير .  
اصرخ فيها :  
- ماذا قلت ؟

تبسم ابتسامة تكبر ثم تضحك :  
- يا امى باحبيبتى لماذا لا تكف عن هذه المشاهد الميلودرامية  
الصارخة ، ما تفعلينه وما تطلبينه غير معقول . حتى عبارتك « اما  
انا او هم » . لا معنى لها !  
هويت بكفى على وجهها مرة ثم اخرى . كان ذلك اكثر مما يحتمل  
برودها ، صفاقتها ، ابتسامتها الوقحة كلها اثارتنى وجعلت الدم  
يغلى في راسى ، امسكتها من كتفيها ورحت اهزها واصرخ فيها  
واسبها وابصق على وجهها . تخلصت منى وقفزت باتجاه الغرفة  
وهى تقول :  
- انك تريدن قتلى ، هل تعرفين ذلك ؟! انك تريدن قتلى ، هل  
تعين ذلك ؟!

كانت هى ايضا تصرخ الان ثم ذهبت . سمعت خطواتها وهى  
تركض الى غرفتها ثم سمعت طرقة باب البيت . ناديت سعدة  
سألته عنها فقال انها خرجت ثم « ماما لماذا تعاملين سوسن بهذه  
القسوة ؟ » فصرخت فيه قائلة : لا اريد ان ارى احدا ، فتركنى  
وذهب فانهرت على المقعد وانفجرت في البكاء .  
لا ادرى كم من الوقت مضى ولكنى انتهيت لنفسى عندما وجدت  
سعدة يضع يده على كتفى ويطلب منى ان اقوم لاغسل وجهى :  
ساعدنى على القيام ثم اخذنى الى الحمام محيطا كتفى بذراعه وظل  
واقفا بالباب حتى غسلت وجهى وجففته . قال : « سأصنع لك  
قهوة » وعندما عاد كنت ابكى من جديد . قالت اننى اريد قتلها  
وانا امها التى حملتها وهنا على وهن وولدها في العمر وسسهرت  
الليالى ملهوفة ارضع واضم واحنو واربى واكبر فتقول اننى اريد

قتلها . كانت الكلمة كالسكين تطعن في قلبي . وهي ابنتي ، ابنة حشاي التي تفعل كل ذلك في . مسحت دموعي وامسكت بالتليفون واتصلت بزينب وحكى لها وبكى .

لازمت الفراش عدة أيام . كنت منهارة انشج بلا انقطاع كلما فكرت ان ابنتي ، اقرب الناس الى ، قد غدرت بي . « سأمتو يا زينب ، لقد قتلتنى اختك بأفعالها » قالت : « بعد الشر ياماما ، لا تقولى هذا الكلام » وبكى هي أيضا .

لم يكن الحزن وحده هو الذى يبكىنى بل الشعور بالحيرة والعجز امام السؤال الملق . كلما لاحت لى احابة أو مخرج وجدته ينتهى بحائط يسد على الطريق ، فابكى . ماذا يقول الناس عنى وعنهما تركتها أمها بلا ضابط ، تركتها تلعب بالنار حتى احترقت ؟! ماذا يقولون حين يصبحون يوما ليجدوا ابنة كمال صفوت وراء القضبان مع المجرمين والقتلة ؟ ماذا يقولون حين يعلمون انها وهى بنت الناس تعيش بمفردها كانها مقطوعة من شجرة ؟ هل أرسل لها سعدا ليعود بها ، هل اذهب أنا اليها أحاطلها حتى تنصرف عن عنادها

وهل أحسن معاملتها بعد أن أهانتنى وطعنتنى وقالت أننى أريد قتلها وفضلت على أناسا سيئى السمعة ؟ ماذا أفعل ومن أستشير وأنا لا أستطيع الحديث فى الأمر مع اقرب الأقربين ، لا أستطيع ان أحكى لأحد ان ابنتى تركت البيت .

يقول لى كمال أنه لا داعى لهذه « المناحة » وانها أزمة عابرة تعود بعدها سوسن الى البيت فهى رغم عنادها فتاة عاقلة وسينتهى كل شئ على خير فأعجب ويتأكد لى أنه الذى أفسدها بتدليله . كلما قلت له ان ابنته عنيدة لأبد من تلجيمها يقول أتركها ، تركتها وهامى النتيجة !

أخبرنى كمال ان سوسن زارته فى العيادة « ألم توبخها على فعلتها ؟ » قال : « عاتبها ولكن حديثنا كان هادئا واتفقنا أن تعود الى البيت » كان كلامه مقتضيا ، لم يشف غليلي . سألت عن البنت كيف كانت تبدو . . وجهها ، ملابسها ، حالتها ، هل سألت عنى ؟ ولكن كمال كان مرهقا ولم تكن به رغبة فى الاستطراد فى الحديث قال وهو يغير ملابسه ويدخل الفراش :

— اسمعى ياخديجة ، العقل زينة والبنت لم تعد صغيرة ، انها فى الخامسة والعشرين قد تختلفين معها ، قد ترفضين سلوكها لكن ليس من الحكمة فى شئ ان تبصقى فى وجهها أو تضربها .

- توقف وهو يحدق في - لم تقولى انك ضربتها وأهنتها .  
كان هذا اكثر مما يحتمل . قلت بصوت عال محتدا :

- لم اقل لك ان فؤاد بيه زارنى فى المستشفى وقال انه عرف  
من أصدقائه ان الدكتور عبد الموجود مراقب هو وكل من حوله وانه  
قد يقبض عليهم فى اى وقت وان اسم ابنتك معسوف فى وزارة  
الداخلية ، لم اقل لك ذلك كله لاني خشيت عليك . كمال انت تدلل  
ابنتك ، دلتها الى حد الافساد والنتيجة واضحة !

جلس كمال على السرير وأشعل سيجارة ومرت لحظات صمت  
حتى بدا وكأنه سيقضى الليلة هكذا دون ان يتكلم ودون أن ينام  
وأخيرا قال :

- ملعون أبو فؤاد بيه على عبد المقصود . المهم عندي هو علاقتي  
بابنتي وانا غير راغب ولا مستعد ان أفسد علاقتي بها مهما كان  
السبب .

- ولكنك بهذا الاسلوب تشجعها على التمادى فى الخطأ .

- انها ابنتك ياخديجة وانت تعرفينها ورايت بعينك عندما  
قلت لها نحن ام هم تركت لك البيت . مادامت هذه هى ابنتنا  
فدعينا من هذه المواقف العاصفة ولنتقبل البنت كما هى !

قفزت من السرير وبدأت اصرخ فى وجه كمال واقول له انه فقد  
عقله وانه يقصر فى واجبه كاب مسئول عن حماية ابنته . ما قلته  
كلام فارغ ، استسهال .. قلت وانا احدثق فى وجهه :

- انا باكمال لا استسهل ولا اهمل فى تربية اولادى سأتصرف  
وسأربيها بالهدوء أو بالعنف ولكنى سأربيها ، فى كل الحالات !

هل هو الاطمئنان الى ان سوسن ستعود الى البيت ام الاحساس  
بسلبية كمال وضرورة اضلاعى بالمسؤولية ، لا ادرى أيهما ولكنى  
بعد هذه المواجهة العاصفة كنت عن البكاء نهائيا وفى صباح اليوم  
التالى وأصلت حياتى العادية وعدت الى العمل بالمستشفى .

وعندما عادت سوسن الى البيت لم اكلمها . كنت أريدها ان  
تعرف اننى غاضبة وانها اخطأت واننى أعاقبها . كنت اتحساشى  
الانفراد بها وأعمد عندما اتحدث مع زينب أو سعد أن ألمح للفرد  
ونكران الجميل والقسوة التى يمكن أن يتعامل بها الاولاد مع  
أهلهم . الاحفظ امتناع وجهها فأقول ليست غبية ولا محتجرة انها  
تتلقى الدرس وتتعلم !

فاجأني كمال بتذكرتي سفر الى أوروبا بمناسبة العيد الثلاثين لزواجنا . فرحت كثيرا بالمفاجأة .  
صبحنا الاولاد الى المطار وهمس كمال في أذني ونحن نودعهم « لقد كنت صارمة مع سوسن بما يكفي . . دعينا نساfer الآن والكل في وئام ، لاجل خاطري ! » اجتضنت خديجة وكريم وقبلت زينب وسعدا ومجدي وسلمت على سوسن ، لم أقبّلها .  
حملتنا الطائرة السويسرية الى مطار زيورخ الذي قضينا فيه ساعة ثم ركبنا طائرة أخرى الى جنيف وبعدها أوصلتنا سيارة أجرة الى الفندق . دخلنا يتبعنا أحد العاملين يحمل حقبتنا . سألتني كمال « ما رأيك ؟ » كان المكان لائقا تماما . بهو رحب يغطي أرضيته من الجدار الى الجدار بساط رمادي به تشكيلات زرقاء وتضمينه نريات ضخمة من البللور الثمين . أعطى موظف الاستقبال مفتاح الحجرة لكمال فصعدنا .

فتحنا الباب على حجرة فسيحة أنيقة الأثاث لها واجهة زجاجية تفضي الى شرفة تطل على بحيرة لي مان . دخل كمال الحمام ووقفت في الشرفة أتأمل ماء البحيرة والمراكب السابحة فيها والنوارس . ثلاثون سنة مرت على زواجنا ، فكيف مرت ؟ يقولون « ما الذي تفعلينه ياخديجة للاحتفاظ بنضارتك ؟ » يضحكون « أنك كالقطط تأكلين السنين وتنكرينها » فأضحك وأقول « أنا في السادسة والاربعين ، لا أنكر . وحفيدتي خديجة في الثالثة عشرة وبعد عامين أو ثلاثة أزوجها وأحمل بين ذراعي أبنائها ! » ثلاثون عاما مروا ولكن المدينة تعيد الايام حية وحاضرة كأنها لم تمض . البنت الصغيرة وقد عادت بلا ضفائر تركض مع عريسها ، تركض وراءه وتلهث انبهارا من حديثه ومعارفه ومداعباته حدثت في الصفحة الزرقاء المتوجة فانبعثت الصغيرة التي كنتها فرحت أراقبها وأبتسم ، أبتسم كأنني أشاهد ابنتي أو حفيدتي صغيرة تشفق في الحب كأنما غطتها فجأة موجة عالية ثم أطلت برأسها منها موزعة بين الدوار ونشوة اللعب ، مبتللة مستهجة وطفلة .

يقول كمال انني في الحب ملكة فأضحك ولا أقول له انه لم يعد في الحب ملكا . انه في الثانية والستين ولكنه طيب يحنو على ويعطيني



كل ما أريد ولا يقول لي ابدا : لا . خرج من الحمام وناداني فدخلت  
أنا لاستحم حمام فسيح وجميل وبه مرآة تغطي حائطا بأكمله .  
تحميت بالماء الساخن دون أن أبطل شعري وعندما انتهيت وقفت أمام  
المرآة لأتشف . ليس صحيحا اننى أكل السنوات بالبطن شيء من  
ترهل وبالثديين أيضا . ولكن هكذا ، لففت جسدى بالمنشفة الكبيرة ،  
لا يبدو شيء من ذلك ، الجسد متماسك وامتلاؤه محبب . جلست أمام  
المرآة كحلت عيني وصبغت شفتي بحمرة قانية وتبهرت وصففت  
شعري ثم لبست ثوبا زيتونيا . قال كمال « تبدين كمسروس ! »  
ضحكت ونزلنا للمساء .

اقضى معظم النهار في زيارة محلات الملابس ، أحب الفرجة وأحب  
الشراء . وبعد الظهر نتمشى على البحيرة ونتناول المشاء في مطعم  
مختلف كل ليلة . يسحرني هدوء المدينة ونظافتها . أقول لكسسال  
« لماذا لم يخلق الله مصر بهذا الجمال ؟ » فيجيبني مبتسما « ارادة  
ربنا ! » أقول « أحيانا تخطر لي فكرة مجنونة .. أن نركب للمستشفى  
عجلا وندفع به هكذا كما هو الى شساطي ليمان .. وأتى بالاولاد  
ونستقر هنا فيقهه كمال » فعلا فكرة مجنونة ! »

« خديجة محظوظة » قلت لكمال وأنا أريه الثوب الذى اشتريته  
لها . ثوب من المخمل الثمين كحلي اللون يحيط بخصره حزام من الحرير  
اللامع ، كحلي بنفس لون الثوب وله ياقة من الدانتلا المشغولة يدويا  
من خيوط دقيقة بيضاء . « انه غالى الثمن ، ولكنه جميل يليق  
بالاميرات ! » فردت أمام كمال كل مشترياتى الاخرى : ثوب لزينب ،  
آخر لراندا ، سترة لسعد ، ربطة عنق لمجدى ولعبة لكريم . قال  
« وسوسن » قلت « لم أجد شيئا يناسبها ! »

قضينا عشرة أيام فى جنيف ثم ركبنا القطار السريع الى باريس .  
بعد أربع ساعات وصلنا العاصمة الفرنسية ونزلنا فى فندق  
بالشانزليزيه يفوق الفندق الذى أقمنا فيه فى جنيف فخامة واثراء .  
باريس جميلة ومبهجة ولقد حلمت دائما بزيارتها . أحب المشى فى  
الشوارع التجارية وأحب المشاهدة ولكن المشى الكثير يرهق كسسال  
فنضطر للجلوس بأحد المقاهى وأحيانا نأخذ سيارة أجرة ونعود مباشرة  
للفندق لذلك أفضل أن اتركه بالفندق وانزل وحدى لكى أمشى كما  
يحلولى . لحسن الحظ أن لكمال أصدقاء فى باريس يأتون إلينا أو  
نذهب إليهم .

عدت من السوق فوجدت رسالة من كمال يقول لي فيها انه ذهب  
لشراء الجرائد ويطلب منى أن أنتظره « الامر هام . أرجو عدم الخروج

ثانية « صعدت الى الحجرة ووضعت اكياسي المشستريات على السرير وغسلت يدي ووجهي ثم طلبت فنجان قهوة وجلست ادخن وانتظر . ترى ما هو الامر الهام ؟ من المؤكد انه لا يتعلق بالاولاد والا لما ذهب لشراء الجرائد وبقي ينتظرنى فى الفندق . تأخر كمال ، لماذا تأخر ؟ هل أصاب سوسن مكروه ؟ تركت الغرفة ونزلت الى الاستقبال ، انتظرت قليلا ثم تركت خبرا اننى فى المقهى . جلست بحيث ارى الداخل .

رأيتة قادما وكانت الجرائد بيده . من وجهه عرفت أن شيئا ما حدث فقميت اليه . أخبرنى أن أحد معارفه كان يزوره وقال له ان الدنيا فى مصر « قايمة » وان السادات أصدر قرارات اعتقال شملت الآلاف بينهم جماعات اسلامية ورجال دين مسيحي وشيوعيون وناصريون ووفديون . قال « كل ذلك حدث منذ أكثر من اسبوع ولاننا لا نقرأ جرائد ، لم نعرف » .

— ولماذا لم تتصل بالقاهرة ؟

— قلت اشترى الجرائد لاعرف التفاصيل لانه ما دام الوضع كذلك

فقد لانستطيع الاستفسار عن الامر بشكل مباشر عبر التليفون .

— أى أمر وأى استفسار نحن نريد الاطمئنان على الاولاد . فقط ! لا علاقة لنا بالسياسة ولا بالجماعات الاسلامية أو المسيحية أو العفاريات الزرق ! الاولاد كل ما يهمنا ، سأذهب للاتصال .

كنت نافذة الصبر وحادة ، وقلقة على سوسن .

— انتظرى دقيقة سأتى معك .

طلبت من موظف الاستقبال أن يطلب لنا القاهرة « سنكون بالحجرة » جاءتنا المكالمة وكانت سوسن هى التى ردت علينا فاطمأنت سألتها عن اخوتها فمالت انهم بخير فأعطيت التليفون لكمال .

كمال عاطفى . أرى الدموع فى عينيه وهو يتحدث مع سوسن بالتليفون . ثم يسأل عن سعد ويكلمه ثم أكلمه ونضع السماعة . اشعلت سيجارة وقلت لكمال أن صديقه هذا أهوج لانه أقلقنا بلا داع . عندما رأيتك تدخل من باب المقهى فكرت ان أحد الاولاد اصيب فى حادث أو أن حريقا شب فى المستشفى . الحمد لله حصل خير !

ولكن كمال ظل قلقا وازداد قلقه عندما حمل له أحد أصدقائه جرائد الايام السابقة الصادرة فى مصر والمنشور فيها القرارات الجمهورية بالاعتقالات ونقل الصحفيين وأساتذة الجامعة قال :

— انظرى انها قائمة بأسماء ١٥٣١ شخصا كلهم اعتقلوا .

— هل تعرف أحدا منهم ؟

— شخصيا لا • لكن العديد منهم شخصيات عامة ومعروفة • هذا  
اجراء خطير سيسبب للسادات مشاكل وربما لنا نحن أيضا •  
— أنت تبالغ يا كمال ! لقد زادت المعارضة وهو يصفى حساباته  
معها أما نحن فليس لنا لا في الثور ولا في الطحين • لا علاقة لنا  
بالسياسة •

— ما حدث خطير •

— ليس خطيرا • انسى كل ذلك الان واستمتع بأجازتك •  
وأخذت منه الجرائد ومزقتها ورميتها في سلة المهملات وقلت له  
اننى اريد ان اقضى سهرة في «المولان روج» فضحك وقال : « سيذهب  
ثمن التذكرة في الهواء • ستقومين من نصف العرض وتقولين انه  
بذيع » قلت وأنا أضحك « هذه المرة سأتشجع وأتحمل العرض  
حتى نهايته في مقابل ما دفعناه ! » فضحك •

باريس كعبة الدنيا ، مدينة النور بحق ، كالعروس فهارا وليلا •  
واجهات المحلات ، السلع الثمينة ، المقاهى الانيقة ، الفنادق الفخمة  
الملاهى كلها تتلألا وتملأ القلب بهجة • أتمنى لو كان كمال أصغر  
سنا ، لو كان عبقيا قادرا على مواكبة خطوتي يحيط كنفى بذراعه ونسير  
في الشوارع معا كأننا في مقتبل العمر •

في طريق عودتنا الى القاهرة حملنا القطار السريع من باريس الى  
جنيف حيث أمضينا الليلة وفي الصباح توجهنا الى المطار وكان الطقس  
باردا والمطر غزيرا • قلت لكمال « تشعيت شعري من البلل والرطوبة  
سأصل القاهرة في صورة غير لائقة ! » تمنيت أن يتسع لى الوقت في  
المطار لتصفيف شعري في محل التجميل الذى رأيته في المطار عنه  
وصولى ولكنه لم يتسع •

وصلنا المطار قبل اقلاع الطائرة بأقل من ساعة ، سلمنا حقائبنا  
واشتري كمال بعض الجرائد والمجلات ثم نادوا على ركاب الطائرة  
السويسرية المتجهة الى أثينا والقاهرة ، أقلمت الطائرة في موعدها  
وقال كمال وهو ينظر في ساعته « ان وصلت الطائرة الى أثينا واقلمت  
منها في الوقت المحدد نبلغ القاهرة في الثالثة بعد الظهر » • تصورت  
كل الاولاد في انتظارنا رأيت نفسى وأنا وكمال نخرج من صالة  
المسافرين ندفع أماننا حاملة الامتعة ثم نلمح الاولاد من وراء الزجاج  
الفاصل ونخرج اليهم ونعانقهم • سألنى كمال : « لماذا تضحكين ؟ » .  
قلت : « سعيدة بقاء الاولاد ! » •

بعد ساعتين ونصف حطت الطائرة في مطار أثينا وأعلنت  
المضيئة ان على جميع الركاب مغادرة الطائرة بما في ذلك الركاب

المتجهين الى القاهرة . فلما استعلمنا عن الامر قيل لنا ان هناك تأخيرا  
فى موعد الاقلاع . فكرت ونحن ننزل الى المطار انه بامكانى لو كان  
علينا ان ننتظر أكثر من ساعة أن أصف شعرى حتى يبدو لائقا .  
وجدت مطار أثينا مختلفا عن المطارات السويسرية ، بدا لى أقل  
رونقا وجمالا . فقلت ملحوظتى لكمال فعلق مبتسما « كلما اتجهت  
شرقا وجنوبا شحب الضوء ! » قلت وأنا أهز رأسى موافقة « صحيح ! »  
بحثت عن محل لتصفيف الشعر فلم أجد . أسفت لذلك ودخلت الى  
دورة المياه لاصلاح هيئتى بالقدر الممكن .

طال انتظارنا . قيل لنا ان مطار القاهرة مفلق ولكنهم  
لم يقولوا لنا السبب . حاولنا الاتصال تليفونيا ولم نفلح . ثم  
وصلت الى أثينا طائرتان احدهما قادمة من العراق والاخرى من ليبيا  
فامتلا المطار بركاب مصريين ، اوضح لى كمال .

- انهم من العمال والفلاحين المصريين الذين يعملون فى الدول  
العربية ولان الطيران المباشر بين مصر وهذه الدول متوقف بسبب  
ما بينها من خلافات سياسية فانهم يركبون الى اثينا ومنها الى القاهرة  
- غريب !

- فعلا غريب ان يسافروا من ليبيا الى مصر عبر اليونان فيطروا  
شمالا ثم جنوبا مرة أخرى .  
- لم أقصد ذلك ، أقصد شكلهم غريب .

- قلت لك انهم اناس فقراء سافروا بحثا عن لقمة الخبز .  
كانوا الآن يملئون المطار ، رجال بالجلابيب البلدية او البدل  
القديمة ونساء ريفيات او من قاع المدن فى ذيل كل واحدة  
طفلان أو ثلاثة منهم من يبكى ومنهم من يضسحك ومنهم من يركض  
بصخب ومنهم من أخرجت أمه ثديها وراحت ترضعه هكذا علنا وسط  
المطار ، غريب !

ينهى كمال أننى ادخن أكثر مما يجب وقال « لا تقلقى ربما كانت  
عاصفة رملية أدت الى اغلاق المطار فى القاهرة » .

قمت الى دورة المياه وكنت أجلس يدى بعد قضاء حاجتى عندما  
دخلت امرأة تلبس ثوبا نيليا أزرق ويتدلى من أذنها قرط ذهبى على  
شكل مخروط من ذلك النوع الشائع فى أرياف مصر وتربط رأسها  
بمنديل وكان معها طفل صغير . تطلعت المرأة فى وجهى وسالت :  
- حضرتك ، من مصر ؟

فأومأت لها برأسى . قالت :

- يعنى بتتكلمى عربى ؟

- نعم .

- مدت لى المرأة يدها بحماس لمصافحتى .

- أهلا وسهلا .. وخضرتك مسافرة من مصر أو راجعة لها ؟

- راجعة .

- والافندى بيشتغل فى الخارج ؟

- قلت بتحفظ :

- لا .

- قالت وكأنها لم تلاحظ انى أريد أن أذهب :

- أبو عبالى يشتغل فى العراق وأنا وهو والعيسال راجعين مصر

- أجازة . وصلنا من ساعة وبيقولوا الطيارات واقفة والمطار مقفول لان

السادات انضرب بالنار !

- السادات !؟

- انضرب بالنار - قالت المرأة وهى تنحنى على طفلها وتنزع عنه

ملابسه المتسخة - الرجاله سمعوا فى الراديوهاات انه وهو قاعد فى

وسط الحكومة والبهوات والعسكر والحراس لابس المفصب والمذهب

طلع عليه عسكرى قال له « جالك الموت ، خد ! » وضربه بالرصاص

السادات مال وانكفى ، مات ماماتش ؟ لسه الخبر ما وصلش !

راعتى كلام المرأة كما راعنى ذلك الهدوء الذى كانت تتحدث به

وهى تمسح لطفلها مؤخرته وتفسلها وتلبسه ملابس نظيفة . تركتها

وعرولت الى كمال لابلغه بما سمعت فامتقع وجهه وسأل :

- انقلاب ؟

- لا أدرى

- لم تخبرك بأى شىء غير ذلك ؟

- ؟

بحشنا عن تليفون بالمطار لعلنا نتمكن من مشاهدة نشرة اخبارية

ولما وجدناه لم نجد أى برنامج اخبارى . ساعتها اقترح كمسأل أن

نسال أحد الشباب المصريين الذين يحملون معهم أجهزة راديو

وفعلنا . أكد الشاب ما سمعته وقال ان السادات أطلق عليه النار

فعلا أثناء مشاهدته العرض العسكرى المقام بمناسبة السادس من

اكتوبر . وقال ان الاذاعات الاجنبية والعربية أذاعت الخبر كما أذاعت

انه منذ نقل السادات الى المستشفى فى الواحدة ظهرا لم يعلن جديد

ويتردد كلام انه أصيب فى يده وكلام اخر انه قتل .

فى السادسة الا خمس دقائق عدنا للجلوس بجوار الشباب

ولاحظت ان كل المصريين قد تحلقوا فى مجموعات حول من يحملون  
اجهزة راديو . قال رجل نحيل له وجه متفطن وشارب فضى كث:  
- لو لم يمت السادات ستكون مصيبة لانه سيبطش بمعارضيه  
- يبطش أكثر من ذلك ؟

قالها شاب باستنكار واضح . فاجابه الرجل النحيل :  
- نعم سيبطش اكثر . . سيصبح فى المسألة أحكام بالاعدام  
والمؤبد . ستتحول الى ثار شخصى . . « حاولوا قتل اذن ساجعهم  
يدفعون الثمن غاليا ! » .  
- لا أظن .

قالها أحد الرجال الجالسين مت دخلا لاول مرة فى الحديث . .  
وعاد يكرر « لا أظن » ولم أفهم ماذا كان يقصد بالضبط وتمتم شخص  
رابع :

- ربنا يستر !  
دقت الساعة معلنة السادسة ولثوان خيم على المكان صمت  
مطبق وأصغنا السمع ثم أعلن المذيع « تأكد الان أن الرئيس المصرى  
مهجد أنور السادات قد توفى اثر حادث الاغتيال الذى تعرض له ظهر  
اليوم وقد صدر فى مصر البيان التالى . . »

لم أكن قد أفقت من الصدمة عندما سمعت زغرودة مجلجلة .  
كانت امرأة متوسطة العمر تلبس نظارة طبية وتحيط رأسها بضميرتين  
سميكتين هى التى تزغرد وتردد بانفعال انه راح وانتهى . ورغم زغاريدها  
فقد كانت الدموع تسيل من عينيها فرجحت أنها مجنونة ثم سمعت  
امرأة تلبس جلبابا ريفيا أسود تنادى عليها من موقعها وسط مجموعة  
متحلقة حول مذيع اخر :

- يا ست يالى بتزغردى الشماعة فى الموت حرام . مات « الله  
يرحمه » افترى فى العباد . . . له رب يحاسبه ويتولاه .

ولكن المرأة المجنونة كانت تكرر انه راح واخذ معه الايام السوداء وكانت  
تبكى . كان الجميع يتحدثون الان مع بعضهم البعض ومع انفسهم والصق  
الشباب الذين يحملون راديو اذانهم بالاجهزة التى معهم لعلهم يلتقطون  
تفاصيل أخرى ينقلونها لمن حولهم .

سحبني كمال من يدى وانتحى بى جانبا وهمس فى أذنى :  
« هذا ما كنت أخشاه ، ربنا يستر ! » فحدقت فيه مستفهمة . كنت  
مضطربة الى حد عدم الفهم وشعرت بتعب شديد يملكنى ورغبة ملحة  
فى العودة الى بيتى والنوم فى سريري .  
طلبت من كمال سيجارة وكان لا يدخن الا نادرا . كان مقطب

الوجه يبدو عليه القلق الشديد أما أنا فكنت افكر في السادات المسكين وتذكرته حين أتى لزيارة ابنته في المستشفى وشرب القهوة معنا . تذكرت النظرة الحانية في عينيه وهو يودع ابنته وتذكرت زوجته فطفرت الدمعة من عيني وأخرجت منديلا من حقيبتي وتمخطت قال كمال « قلت لك ان الامر لن يمر بسلام . كان تصرفه الاخير حماقة ، مقامرة مجنونة قد نضطر نحن لدفع ثمنها ! » لم أفهم شيئا مما يقوله ولكنه كان يضرب كفا بكف ويتمتم « ربنا يستر ! »  
لم ينادوا علينا لركوب الطائرة قبل أربع ساعات . في الاتوبيس الذي حملنا الى الطائرة كان الركاب يثرثرون بشكل عادي كأن شيئا لم يحدث أما في الطائرة فقد لفهم الصمت . كانت رحلة قصيرة استغرقت أقل من ساعتين .

في مطار القاهرة بدا كل شيء عاديا . قام رجال الشرطة باجراءات الدخول المعتادة ولكننا عندما خرجنا الى المدينة وجدناها ساكنة تماما ولم يكن في الشوارع سوى أفراد من القوات المسلحة وحرس المنشآت . وقال كمال « يبدو أن هناك حظر تجول » وكان ذلك صحيحا لانهم ، أوقفونا في الطريق ولما رأوا جوازي السفر عليهما أختام الوصول سمحوا لنا بالمرور .

وأخيرا وصلنا الى البيت وما أن أدار كمال المفتاح في الباب حتى سمعت سعدا يهتف : « وصلوا ! » كانوا جميعا بانتظارنا : زينب وسوسن وسعد ومجدى والصفيران . التفوا حولنا نتبادل القبلات وقالت سوسن وهي تضحك : « الآن آتى لكم بالشربات » وضحكت ولم أفهم ما تقصده الا عندما أوضحت زينب أن سوسن مفتبطة لموت السادات . فكرت في توبيخها ولكني عدلت « لا داعي لخلق توتر جديد بيننا » للاولاد وأنا أضحك : « لولا تأخيرنا في مطار أثينا لكان كل شيء رائع . . كانت رحلة العمر . . تعالوا أريكم الهدايا التي أحضرتها لكم ! » .

الحمد لله لم يحدث شيء . بعد حادث اغتيال السادات كان كمال متوجسا يتابع الاخبار بشكل يومي ليعرف الى أين تتجه سياسات الحكومة . لم أكن أرى داعيا لقلقه فما دخلنا نحن بمصر رئيس يرسل و آخر يجيء ؟ لا علاقة لنا بالسياسة ولم يكن لنا علاقة بها في أي وقت فلماذا القلق إذن ؟ ولكن كمال كان قلقا .

لم يحدث شيء . المستشفى يزدهر . كل صغيرة وكبيرة فيه كما يجب ويليق . نظامه في دقة الساعة ، نظافته مضرب الأمثال ، تطور أجهزته بلا منافس ، طاقم أطبائه هو الإكفأ في البلد . « نموذج للمشروع الاقتصادي الناجح » هذا ما يقوله الناس وعلق كمال : « خديجة وراء كل ذلك ! » فأجيبه بأنه يبالغ .

المستشفى هو كل شيء . استغرب أنه كانت لي حياة سابقة على وجوده وأفزع لفكرة أن أكون ولا يكون كأنني لبلابة تنمو وتتفرع على جداره الهائل ، أعطيه كل شيء . وهو يعطى حياتي الحياة فما الذي كان يصيبني لو لم يكن هناك ؟ زينب منشغلة بزوجها والصغيرين وسوسن غائبة ولا تحمل في حضورها سوى النكد والغم وسعد ركب رأسه وأصر على العمل في الاسكندرية بعد تخرجه . قلت لأبيه : « أقنعه ، اضبط عليه ، قل له ان ذهب تكون غاضبا عليه ولكن كمال كعادته مع الاولاد يتركهم يفعلون ما يشاءون حتى لو كان ذلك في غير صالحهم . أخذ سعد عروسه وذهب الى الاسكندرية للعمل والاقامة وكمال بدأ ينسحب تدريجيا ليس فقط من العمل في المستشفى بل ومن الحياة العامة أيضا فهو لا يفضل قبول الدعوات على العشاء وحفلات الاستقبال ولا يذهب الى المستشفى الا مرتين في الاسبوع ، مرة لاجراء جراحات وأخرى لعيادة مرضاه . وأعرف أنه يشعر بالملل لجلوسه منفردا في البيت طوال اليوم فانا أمضى النهار في المستشفى من الثامنة صباحا حتى الثالثة بعد الظهر وأشجعه على الخروج كل صباح ليجلس في حديقة جروبي أو مقهى فندق شسبرد وأعرض عليه أن أترك له السيارة والسائق فيقول انه يفضل أن يمضى ما دامت المسافات قصيرة لان ذلك يفيدته ويساعده على قطع الوقت .

تقدم العمر بكمال فلم يعد يأكل ولا ينام كما كان يفعل في



الماضى ، لقمطان ويقول شبيعت . ساعات قليلة بنامها ثم يصحو مع الفجر فى الغالب وعندما استيقظ أجده شرب الشاى وقرأ الصحف كلها . كمال يخطو فى شيخوخته وحيدا والاولاد يخذلون . زينب أفضلهم لانها الاقرب والاكثر سؤالا عن أبيها وعنى . أما سعد فقد ترك أباه ليعيش فى الاسكندرية لمجرد عناد أحق وسخيف . قال أبوه « اتركه أنها مرحلة وتمر » ولكنى لا أصدقه لان هذا هو بالضبط ما قاله عن سوسن ولكنها لم تمر وبقيت البنت على حالها وكان من الاجدى الامساك بزمامها بقوة وحزم ما دامت طبيعتها جامحة فى الخطأ . الان فات الوقت وأفلتت البنت وكان الذى كان .

منذما أعلنت انها سوف تستقل بحياتها وتقيم بمفردها كان الكيل قد فاض فقلت لها « افعلى ما بدالك أنت حرة ولكن اعلمى اننى لست راضية عما تفعلين . اسقطتك من حسابى ولم اعد اهتم ! » وعندما حكيت لكمال قال لى ان كلامى شديد القسوة وان البنت لابد وانها تألمت ألما شديدا فقلت له أنها طائشة ومجنونة ولا يؤثر فيها شيء « هل تتصور انها أنصتت لما أقول ؟! انها لا تسمع الا ما فى رأسها ! »

هذه البنت مشكلة بلا حل فكيف أجد لها حلا ؟ كادت تبلغ الثلاثين ولم تتزوج . . لماذا ؟ لا أفهم كلما اخترت لها عريسا سخرت ليس فقط منه بل ومن الفكرة ذاتها فهل تدخل الدير وتصبح راهبة ؟! ليست كباقي البنات تريد رجلا تحبه وتسكن اليه وتملا عليه بيته بالاطفال ؟ ولكنها لا تفكر بهذا الشكل . . فكيف تفكر وما الذى تريده ؟ أبوها لا يوافق على ما تفعله ولكنه يجد لها الاعذار والمبررات وينهى أية مناقشة بيننا بشأنها بنفس العبارات : « دعيها ، هذه حياتها ومن حقها أن تفعل بها ما تريد ! » كمال هو السبب ، هو الذى حال دون أن ألجم هذه البنت وأشد اللجام بما يناسب طبيعتها وطموحها الآن تأخر الوقت فهل فشلت فى تربية اولادى ام ان الاولاد هكذا يكبرون يركبهم عنادهم ويجنحون بعيدا عن أهمهم التى أنبتتهم وعاشت سنوات عمرها ترعى وتكبر وعيناها وروحها متعلقة بفروعهم النامية ؟ قد أكون فشلت فى تربيتهم . .

فى المستشفى لم أفشل . يطلقون على « الملكة » يقولون « جاءت الملكة » « ذهبت الملكة » « قالت الملكة » حين سمعت بذلك للمرة الاولى استغربت وضحكت وبدت لى المسألة طريفة ولكنى الان اعنيت الاسم وهو يملؤنى اعترازا لانى اعرف ان وراءه تقدير الاطباء والعاملين بالمستشفى لما أقوم به من جهد يجعل المكان شبيها بمملكة فاضلة يحكمها النظام والدقة والكفاءة تماما كما يجب ويليق .

## الجزء الثانى

### سـ

-١-

انه عيد ميلادها الخمسين وكلى رغبة فى اسعادها . سأتحمم وإعتنى بتصفيف شعرى والبس ثوب المناسبات وأشتري حذاء جديدا فتعرف أننى أهتم ويسعدنا ذلك .

رائقتنى صديقتى سميرة الى السوق وتاملنا معا الواجبهات الزجاجية لمحلات الاحذية . أشارت سميرة الى حذاء أسود لامع مقدمته مصنوعة من سيور جلدية دقيقة متداخلة :  
- ما رأيك ؟

- جميل لولا كعبه .

كان للحذاء كعب منبب رفيع يرتفع عن الارض مالا يقل عن سبعة سنتيمترات .

- لن ترتديه كل يوم ، انه حذاء للمناسبات !

- سأعصر فى المشى به !

- بالعكس ، سوف يجولك الى امرأة محترمة ، تمشى ببطة أنثوى وتحوذ على رضا « البهوات » وتجلس بينهم بكل ثقة كأنها واحدة منهم ! ورغم أنها كانت تضحك فقد جذبتنى باتجاه باب المحل فدخلنا وطلبنا الحذاء . قسته فوجدته ضاعطا على قدمى ولكن البائع أكد أن المقاس مناسب : « أيام قليلة ويلين ويصبح مريحا » أبقيته فى قدمى ودفعت ثمنه ثم بحثنا عن هديتين مناسبتين لأمى وخديجة ابنة زينب لان الاحتفال كان بمناسبة عيد ميلاد الاثنتين . بعددما تركتني سميرة وتوجهت أنا الى منزل أهل .

القيت نظرة مطمئنة على حدائى الجديد ثم ضغطت على الجرس . فتح الباب خادم لا أعرفه قال : « تفضلى البهوات فى الصالون » دخلت فوجدت أن زينب وخديجة جالستان وحدهما فى كامل زينتهما . تبادلنا السلام والقبلات وقدمت الهديتين .

كانت أسى تلبس ثوبا حريريا فى لون خشب الورد يكشف عن نحرها وذراعيها ويلف جسدها ويكسمه وتزين بالماس : عقد على جيدها وقرط فى أذنيها وخاتم فى بنصرها الايمن ثم جاء أبى وكان كعهده فى الشهور الاخيرة يتكىء على عصاه ولاحظت أنه ازداد شحوبا ونحولا . دخل رجلان وأمرأتان لا أعرفهما ثم لحق بهم آخرون وامتلأت المقاعد بالضيوف . نساء فى ملابس السهرة تصفح منهن روائج

المطور ورجال في حبل داكنة وقمصان بيضاء وربطات عنق نقشهما  
رزين . النساء يرتدين أحذية سوداء لامعة لها كعوب رفيعة كالخذاء  
الذى بقدمي لكن الخذاء الذى بقدمي كان يؤلمني ألما حقيقيا فهل كانت  
أحذيتي أيضا تؤلم ؟ شعرت بالارهاق والوخشة بحثت عن أمي  
وزينب فوجدتهما في حجرة المائدة فسألتهما ان كانتا تريدان مساعدة  
فقلنا انهما لا تريدان ، تركتهما . دخلت الحمام وخلعت الخذاء .  
كان الاحتكاك المستمر بجلدى قد ألهب عرقوب القدم ومفصل الاصبع  
الكبير الذى بدت عليه حروز حمراء كأنه جرح بسكين . دفعت بقطعة  
صغيرة من القطن داخل كل فردة لتحمي جلدى الملتهب وأدخلت قدمي ،  
بات المشى مستحيلا . خلعت الخذاء وبحثت عن شيء أضعه في قدمي  
فوجدت « شبشب » مصنوعا من المطاط ارتديته وعدت به الى الصالون  
لاحظت زينب الامر في الحال فهتفت في استنكار :

- أين حذاءك ؟

- لقد اشتريته اليوم وهو ضيق وجلده قاس .  
- ولكن هذا شبشب الشغالة !

لم نواصل لان أمي جاءت تدعو الضيوف الى مائدة العشاء  
ووجدت نفسي غير راغبة في الطعام أتناهب بقوة وبى رغبة في النوم .  
تركت الصالون ودخلت الحجرة التى كانت لى ولزينب وألقيت بنفسي  
على أحد السريرين ورحت في النوم .  
عندما غادرت بيت أهلى لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة  
والنصف صباحا . سرت على أطراف أصابعى وأغلقت الباب خلفى في  
هدوء حتى لا أوقظ أحدا . كان الميدان خاليا الا من بائع الحليب يدق  
جرس دراجته وامرأة تهوول وبدا التمثال في تلك الساعة المبكرة  
من الصباح اليفا تماما كما كان أيام طفولتنا .

أنا وزينب ننزل كل صباح للذهاب الى المدرسة . نقف أمام  
بوابة البيت نثرثر ونقضم « الساندويتشات » وننتظر ثم نسمع  
صوت موتور الاتوبيس فنلتفت باتجاه شارع قصر النيل ونجده قادما  
نحمل حقائبنا المدرسية الثقيلة ونستعد . عندما يتوقف نضع  
ونقول بصوت واحد تقريبا « صباح الخير » ثم جلس متجاورتين .  
في الصغر كنا ننام في نفس السرير ولا نلعب الا معا وعندما كبرنا  
بعض الشيء صار لنا سريران متجاوران ومكتبان صغيران متلاصقان .  
نستيقظ معا في الصباح ومما ندخل الحمام ، احدانا تجلس للقضاء  
حاجتها والاخرى تغسل وجهها وتفرش أسنانها . نرتدى ملابسنا  
في نفس الوقت وفي نفس الوقت ننزل . درسنا على أيدي نفس

المدرسات وقرأنا ذات المقررات فلماذا أصبحت زينب هي زينب  
وأصبحت أنا سوسن ؟ وفى أى لحظة من حياتنا تفرع مجرى  
العمرين ؟

ضبطت نفسى أتأملها بعين المشاهد الغريب وهى أختى التى  
كنت أسر إليها بكل أشيائى الصغيرة التى لا أجرؤ على قولها لسواها  
والتي كنت حين أرى حلما مفزعا أوقفها لاسرح لها بخوفى ، تهدئنى  
وتحتضنى فأنام بجوارها مطمئنة . ضبطت نفسى أنظر إليها نظرة  
الغريب الى الغريب . كيف بدأ الامر ، كيف تراكم ؟ وهل الاختلاف  
يأتى بالوحشة ؟ وما الذى يباعد بين مجرى ومجرى ؟

« اسمى سوسن كمال الدين صفوت وعنوانى ١ ميدان مصطفى  
كامل الدور الثامن شقة ٨٢ » لو وضعت يا ماما وقلت للناس اسمى  
والعنوان ألا يعيدونى اليك ؟ « كنت فى الرابعة من عمري وربما حتى  
فى الثالثة . كان اسم الميدان تاما كالميدان نفسه والتمثال الذى  
يتوسطه والعمارة التى تطل عليه ونسكنها لا تعنى لى سوى اللفة  
والامان : عنوان البيت .

وفى يوم كنا ننتظر سيارة المدرسة ، ما الذى جعلنا نعب لنلعب  
حول التمثال ؟ ربما كنا نلعب لعبة القط والفار : أختفى خلف التمثال  
وتحاول زينب الامساك بى . ساعتها رأيت الكتابة . حاولت قراءتها  
ولم أفلح فطلبت منها أن تفعل . كانت فى السنة الرابعة الابتدائية  
وتحسن القراءة ، قرأت : « مصطفى كامل باشا ١٨٧٤ - ١٩٠٨ »  
وعلى الجانب الايمن : « لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع  
الحياة » ومن الجهة اليسرى « ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو  
مرة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان » وعلى ظهر  
التمثال : « اكتتبت الامة بجميع طبقاتها فى صنع هذا التمثال سنة  
١٩١٠ وفى سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة اقامته فى هذا الميدان تمجيда  
للذكرى قرأت زينب كل ذلك ولم أفهم سوى انه كلام مبهم عن مصر  
التي نغنى لها كل صباح ساعة رفع العلم فى المدرسة . سألت زينب  
فقال أنها لم تفهم شيئا ثم سمعنا صوت موتور سيارة المدرسة  
فقال باحتجاج : « أضعنا الوقت فى قراءة كلام لا نفهمه ، جاء  
الاتوبيس ولم نلعب ! » .

ثم نسيت الامر أو بدا لى اننى نسيته حتى رأيت ذلك الفيلم فى  
التليفزيون . كنت أحب مشاهدة الافلام العربية بكل أنواعها الافلام  
المضحكة التى يتنكر فيها البطل فى ثوب امرأة والافلام المحزنة التى  
تبكى فيها البطلة المظلومة بصوت متهدج وهى تكرر أن الله هو المنتقم

وأفلام المغامرات التي يتعارك فيها الطيب والشرير ويحطمسان كراسي  
المقهى على رؤوس الرواد والأفلام العاطفية التي يغنى فيها الحبيبان  
عن الحب والعصافير . فى ذلك اليوم طلبت من زينب أن تقرأ فى  
الجريدة اسم الفيلم الذى سيداع عصرا فى التليفزيون فقالت  
« مصطفى كامل » وتأففت : « لن نضحك ولن نسمع أغاني ولن نفهم  
شيئا ! » ولكننا ما أن عدنا من المدرسة بعد ظهر الخميس وبدلنا  
ملابسنا وأكلنا حتى بدأنا ننتظر موعد عرض الفيلم .

شاهدنا الشاب الوسيم الذى كان اسمه مصطفى كامل وتابعنا  
حكايته ورنه صوته وإيقاع كلماته وهو يخطب فى الناس ويدق بيده  
اليمنى على المائدة التي أمامه ورأينا الفتاة التي نسجت له علم مصر  
وأهدته له وأجساد الفلاحين المتأرجحة على المشانق . وفى آخر الفيلم  
رقد البطل على فراش الموت ثم مات . وبكت زينب وقالت بصوت  
مخنوق انه فيلم حزين .

ثم أصبحت أقلد مصطفى كامل . ألبس طربوشا قديما كان لجدى  
صفوت واحدى سترات أبى وأضع كوب ماء على طاولة أقف وراءها  
أكرر كلماته بصوت جهورى وأدق بقبضتى على الطاولة فتضحك أمى  
وزينب ويصفق سعد وأحيانا يأتينا ضيوف فتنادينى أمى وتقول  
« قلدى مصطفى كامل يا سوسن » فأقلده ويضحكون .

وربما فى نفس تلك الفترة أو بعدها بسنة أعلن جمال عبد  
الناصر ما سمي بالقرارات الاشتراكية . كنا فى الاسكندرية نقضى  
أجازتنا الصيفية مع أمى . وعندما عدنا الى القاهرة كان الحديث بين  
جدى صفوت وجدى محمود يدور دائما حول « عبد الناصر الذى  
خرب البلد » ولم أكن أفهم معنى هذه القرارات ولا لماذا يقولون أن  
فيها خراب البلد . كذلك لم أكن أعرف من الصادق فى كلامه هما  
أم مدرسة الموسيقى التي كانت تجمعنا فى الحصة الاسبوعية وتجلس  
الى البيانو وتعزف وتغنى :

« وطنى حبيبي وطنى الاكبر

يوم عن يوم أمجاده بتكبر

وانتصاراته مليه حياته

وطنى بيكبر ويتحرر »

ولم تكن مدرسة الموسيقى وحدها بل المدرسون الآخرون أيضا  
فى حصص العربى والتاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية فى  
السنوات التالية يدرسوننا أن عبد الناصر بطل عظيم لانه طرد  
الانجليز من مصر وأمم القنال وحقق الاشتراكية التي تعنى الكفاية

والعدل ولأنه سوف يحرر القدس من المحتلين تماما كما فعل صلاح الدين من قبله .

هذا ما كنا ندرسه في المدرسة أما في البيت فلم يكن أحد يحب عبد الناصر . كان ذلك واضحا على الرغم من انه لا أمى ولا أبى كانا منشغلان بالسياسة والحديث في أمرها . ولم يكن الامر يشغلني ولم يبد لي أنه يشغلني أكثر من زينب التي كنت انتظر معها ليلة الاحتفال بثورة ٢٣ يوليو لنستمع الى الاغاني الجديدة التي يقدمها عبد الحليم حافظ وشادية أمام جمال عبد الناصر في نادى الضباط ، ونشاهد الحفل معا في التلفزيون وتتابع العرض العسكري صباح اليوم التالي : تشكيلات الدبابات والمدرعات والصواريخ وطوابير الجنود وأسراب الطائرات المحلقة يعلق عليها مديع بليغ تتخلل تعليقاته موسيقى المارشات العسكرية .

كان جدى صفوت يكرر ان ربنا من غضبه على مصر ولى عليها عبد الناصر وكنت أنا وزينب نحب أغاني عبد الحليم حافظ ونتمسك به في آداء أغنية أم كلثوم :

محلاك يا مصرى وأنت ع الدفة  
والنصرة عاملة فى القتال زفة  
ياولاد بلدنا تعالوا ع الضفة  
شاوخوا لهم

غنوا لهم  
وقولوا لهم

ريسنا قال .. مفيش محال  
راح الدخيل وابن البلد كفى

وعندما وقعت الواقعة وانهمز الجيش المصرى فى سسيناء بكت زينب طويلا لان سوء حظها جعل كل هذه المصائب تحدث فى الايام المحددة لاعلان خطبتها ، أما أنا فركضت الى الشارع كان فيه النجاة من الموت ، ركضت بلا تفكير بدافع كالغريزة وأعادتنى أمى عنوة كائن نعمة شاردة وقيدتنى بالحبال . ليلتها قلت لزينب وأنا أحرق فى الجدار :

- زينب ...

- نعم

- تعرقين ؟

- ماذا ؟

- أمى ..

- مالها ؟

- انها تريد قتلى !

كانت عيناى مثبتتين على الجدار .

- هل جننت ؟

- لا ، انها الحقيقة !

- سوسن لا تقولى ذلك .

لم تفهم زينب . ظننتها الاذكي ، في المدرسة كانت الاكثر تفوقا  
تبذل مجهودا اقل وتحقق نتيجة افضل ، لماذا لم تفهم ؟ !  
كررت :

- امى تريد قتلى يا زينب !

جلست الى جوارى وامسكت بيدي بين يديها وقالت : « انه  
الشیطان يا سوسن ، انه الشيطان يوسوس لا تستسلمى له » وبكت  
وقالت انها خائفة واحتضنتنى وقبلتنى ثم قامت لتصنع لى كوبا من  
الليمون .

لم تفهمنى زينب ولكنى لم اشعر بالغربة ولا رأيت علامات الانشقاق  
والتحول فهل ولد الانشقاق لحظتها أم أنه جاء بعد ذلك وأنا أحمر  
بأظافرى بحثا عن الاجابات التى تروى ؟ .

سبتمبر ١٩٦٧ . اليوم الاول من العام الدراسى فى نهاية  
الحصة الثالثة دق الجرس ونزلنا للفسحة لم أخرج الى الفناء مع  
باقى الطالبات بل واصلت النزول على السلم الحلزونى حتى وصلت  
الطابق الارضى حيث المكتبة .

الباب مفتوح . قاعة فسيحة مستطيلة تغطى حوائطها ارفف  
الكتب . فى الطرف المقابل للباب جلست امينة المكتبة . اقتربت  
منها :

- صباح الخير هل يمكن أن أستعير كتابا ؟

- أى كتاب ؟

تلصمت :

- لا أدري بالضبط ، ولكنى أريد أن أقرأ فى التاريخ .

قادتني الى أحد الاركان وقالت وهى تشير الى مجموعة من الارفف  
« هنا » ثم تركتنى وعادت الى مقعدها .

استمرت كتابا ضخما عليه صورة لرجل طويل يميز وجهه شارب أسود كث ويرتدى طربوشا غير مألوف الشكل وسترة طويلة بصفين من الأزرار الفحاسية المتقابلة . وكان عنوان الكتاب : « الثورة العرابية » .

وبدأت أقرأ . أقرأ بنهم فى الطريق الى المدرسة وفى الطريق منها ، فى المساء بدلا من المذاكرة وفى الليل والكل نيام ، أقرأ ، أتابع تفاصيل الثورة ، فعل عرابى ورجاله ، وقفته فى مواجهة الخديو بميدان عابدين : « أنتم عبید احساننا » « لسنا عبیدا لاحد ، لقد خلقنا الله أحررا » تتجمع الاشواق كالفلاحين فى جيش الثورة ، تقوم وتنكسر ويأتى زمن الاحتلال . تحمل السفينة قادة الثورة الى المنفى وهم يولون وجوههم شطر الشاطئ الذى يبتعد : « يا كنانة الله صبرا على الاذى حتى يأتى الله لك بالنصر » أبكى ، تختلط الحروف أمام عيني فأمسح دموعى ولكنى فى النوم أبكى . توقظنى زينب وتأتى لى بكوب ماء أشرب . تقول انه كابوس ، تنصحنى : « اقرأى الفاتحة قبل النوم فتبديد الكوابيس » .

١٨٨٢ لا تبدد . البوارج فى البحر تقصف الاسكندرية . الحصون لنا والبوارج علينا . تجفل روحى من قصف الغزاة لمدينة هى لى ملهى الطفولة ، اسكندرية الامواج واللعب تتوارى خلف الحصون تصمد ثم لا تصمد . وعرابى فى ظلام سجنه يسمع الصوت قبل أن يرى صاحبه .

- يا عرابى

- ماذا تريد ؟

- أتدرى من أنا ؟

- لا ! اعلمنى باسمك وماذا تريده منى فى هذا الوقت ؟

- أنا ابراهيم أغا يا ابن الكلب يا خنزير

ثم ييصق على عرابى ويهينه .

فهل كانت هزيمة التل الكبير هى التى توجع أم هزيمة الجيش فى سيناء ؟ شئ يجرح ويهين يلازمنى فى النهار فأواجهه بعناد شرسى متخشب وفى الليل يفيض دمعاً يغمرنى فأصير ككسرة خبز فى الماء فتاتا هشا .

ليلة من ذات الليالى انتبهت زينب فسالتنى :



- لماذا تبكين ؟
- لا شيء
- ولكن الدموع تبلل وجهك وعيناك حمراوان .
- لا شيء .
- جلست بجوارى وألحت فى السؤال فقلت . أعلنت دهشتها .
- تبكين هكذا من كلام فى الكتب ؟
- ... ..
- الانسان لا يبكى الا لاسباب حقيقية .
- ... ..
- سوسن انك تكذبين ، ماذا حدث ، هل وقعت فى الحب ؟

ذهبت اليوم نزيارتها وكما في كل مرة ننفرد باللقاء أعود وقد  
ركبني الفم والسؤال المربك الملح : « اليس هناك من طريقة لدرء تلك  
الوحشة التي تنتصب كالسلك الشائك بيننا ؟ » نلتقى فيجثم الصمت  
على صدرينا لا يقطعه الا جمل منبته .

لا شيء يجري ، لا نهر ، لا نبع ، لا دائرة تواصل ... لا شيء الا  
تلك النظرة الصارمة التي تباغتني أحيانا بها ... لحظة خاطفة يعقبها  
الانصراف والتجاهل .

لم تكن الأمور هكذا دائما . في طفولتي المبكرة كانت هي كل شيء  
ليس فقط لان أبى كان غائبا في عمله تكاد لا نراه الا يوم الجمعة  
ولكن لانها اعطت ايامنا شيئا من الفرح الصاخب لاطفال في مدينة  
للعلاهي : نضحك في طرب منتش ومستشار . وحتى عندما كنا نخطيء  
فتصرخ فينا كالغولة ونركض مدعورين كالارانب نخفى في الاركان  
والزوايا كانت تصفو بسرعة مدهشة وتقمربنا في صخب جامع ثم رفعنا  
كانها موجة في بحر الاسكندرية الكبير .

فما الذي حدث بعد ذلك ؟ حادث مؤسف او امر طبيعي؟ طلقة  
افزعت الطائر فهاجر بعيدا عن مدى الصيد .. ولم يكن يوم قيدتني  
بالجبال الى السرير اذ كنت منشغلة عنها وعن نفسي بالكارثة التي  
حلت . يوم آخر هو الذي افزعني فركضت نافرة ومدعوة .

حدث الامر بلا مقدمات . لم تتشاجر مع سعد ، لم يصدر عنه  
شيء يستدعي العقاب ، لم يجر نقاش يمهد لما فعلته . عاد سعد من  
مدرسته دخل حجرته ثم خرج منها . وكنت اجلس بجوارها نشاهد  
تمشيلية في التلفزيون .

- ماما ، اين اشياي ؟

اجابت دون ان ترفع عينها عن التلفزيون :

- انا والشفالة قمنا اليوم بترتيب حجرتك ، الا تقول شكرا ؟!

- والرسوم ياماما ، الرسوم والتماثيل اين وضعتها ؟

- تخلصت منها

- تخلصت منها ؟!

كنت انا التي سألت . سعد واقف امامنا ممتقع الوجه كأنه سوف  
يسقط مقلبا عليه

- لماذا يا أمي ... لماذا ؟  
 - لا قيمة لها ... لا معنى لها ... تشغلك عن دروسك وتجميل  
 الحجرة كمقلب للقمامة ... أوراق وطن وجبس وخشب ...  
 كراكيب تخلصنا منها !  
 - كيف ؟  
 - أعطيتها للزبال .  
 أغلقت التلفزيون ووقفت في مواجهتها أصيح :  
 - ماما ماذا فعلت ؟  
 - لا أسمع لك بمخاطبتى بهذا الشكل ، كيف تجرؤين ، هذه  
 وقاحة !

أدرت لها ظهرى ولحقت بسعد في غرفته وطرقت الباب بمنف  
 وكان سعد جالسا على سريره مطاطيء الرأس . حاولت التحدث  
 معه ولكنه بقي صامتا ثم انتهيت الى الزجاج على الارض والى يده  
 النازفة . كان قد حطم كوبا زجاجيا زخرفه بنفسه ليضع فيه أقلامه  
 على المكتب ، ضغط عليه بيده حتى تحطم . أخذته ونزلت الى أقرب  
 صيدلية لعمل الاسعاف اللازم . بعدها أصيب بحمى استمرت عدة  
 أيام وأعلنت أمي أن سعد جرح يده وذهب الى صيدلى حمار لم يفلح  
 في تنظيف الجرح فآدى الى تلوث تسبب في هذه الحمى . قالت أمي  
 هذا الكلام وظلت تميده حتى صدقته .

عندما كنت صغيرة كانوا يقولون اننى أشبهها « الخالق الناطق  
 خديجة » ، « سوسن نسخة من أمها » الآن لم أعد أشبهها . هي  
 خديجة الملكة التى تدير المستشفى بصرامة قائد عسكري وتلبس ثياب  
 الحرير الطبيعى التى تفصلها لها مدام لورا الخياطة الإيطالية وتحلى  
 بمشبك البلاتين المطعم بالماس أو بمقد اللؤلؤ الحر وأنا سوسن ذات  
 الحذاء المعفر يشغلها كتاب أو سؤال فتتنسى شراء رغيف خبز للعشاء  
 وتنسبه في الصباح انه لم يعد لديها قطعة سكر تحلى بها كوب الشاي .  
 لم أعد أشبهها ولذلك استغربت كلام مجدى عندما قال : « تشبهين  
 أمك بشكل مدهش ! » واجبت : « كنت أشبهها أما الآن فاختلف  
 تمام الاختلاف » قال : « تشبهينها من الداخل ، قوتك ، عنادك ،  
 كلها منها وليست من أبيك ! » وكان ذلك أعجب ما سمعت ولم أفهم  
 كيف رأى مجدى ذلك .

في طفولتى أعجبت بكاء أمي ومهارتها وكان البيت كالساعة  
 فى نظامه ونظافته . أن قامت بطهو الطعام أجادت وأن استقبلت

ضيوفنا في الشكل' اللائق وان تحدثت احسنت تكرر على مسامعنا  
« لا احب النص نص . في المدرسة كنت الاولى باستمرار . تلاميذ  
بالنسبة لى تعنى تلاميذ مجتهدين . القبول بالمسؤولية يعنى القياس  
بها على اكمل وجه » واصبح سعد طبيبا نص نص » يملؤها ذلك مراة  
تتغاضى عنها حيناً وحيناً تذكرها فتنفجر فيه كأنه عاد لتوه حاملاً  
شهادة تخرجه بتقدير مقبول .

في المدرسة كنت افخر بها عندما تأتي لزيارتي فتبدو اجمل  
الأمهات وأكثرهن اناقة وذكاء . أرى الاعجاب في عيون المدرسات  
وزميلاتي أيضاً كن يحسدننى لأنها تشرح لى الدروس وتساعدنى  
في كتابة مواضيع الانشاء وفي رسم الخرائط .

في سنوات المراهقة انقلب الحال فكنت اشعر اننى منكوبة بهما  
وهي تفضط وتقتحم وتقمع وبدأ اللجام فى يديها قارصاً بما لا يطاق  
تركبتها تمسك بلجام وهمى . حفرت لنفسى سراديبى الارضية التى  
لا تراها ولا تعرف بوجودها . أدت شئونى بما يحلو لى بعيداً عنها ،  
الكتاب الذى اقرؤه ، السؤال الذى يشغلنى ، الصديقة التى اسكن  
اليها ، الشاب الذى احبه كلها فى السرداب أمور لا تعلم عنها شيئاً .  
هكذا تحاشيت صدامات يومية تنهكها وتهكنى وأحياناً رغم ذلك يقع  
الحادث المؤسف كأنه لا راد لله :

قال سعد :

- ماما ، احب فادية واريد التقدم لخطبتها .
- ومن هي هذه الفادية ؟
- كانت تعرفها وتعرف أنها صديقة سعد .
- ماما لقد رأيتها أكثر من مرة ، انها زميلتى فى كلية الطب .
- وما عيب راندا ؟
- تلثم سعد واحمر وجهه . تدخلت فى الحديث :
- وما عيب فادية ؟
- لا تناسبنا . راندا احلى وأكثر اناقة وابوها جراح كبير كابيك .
- ولكنه يحب فادية ولا يمكنك أن تملى عليه شعوره .
- كفى عن هذه الوقاحة ولا تتدخلى فيما لا شأن لك به . اسمع  
ياسعد ان كنت تريد الزواج فانا مستعدة ان اذهب معك الى الدكتور  
سالم ونطلب راندا ، اما موضوع فادية فمن الافضل ان تصرف نظرك  
عنه وان كنت مصراً فاذهب وحده .
- بعدها بأسابيع سألته :

- ماذا فعلت في موضوع فادية ؟  
 - لم أفعل شيئا .  
 - هل تخليت عن الموضوع ؟  
 - ....  
 - لماذا لا تجيب . ؟  
 - ماذا أقول !  
 - قل لى ماذا حدث ؟  
 - قلت لها انك غير موافقة وانى مستعد للتقدم لخطبتها وحدى  
 - ماذا قالت ؟  
 - رفضت .  
 ابستمت أمى ابتسامة عريضة وقالت :  
 - أنت ولد ساذج وبريء . هى وأهلها يريدونك طمعا في مال  
 أبيك ومركزه .  
 - أرجوك يا أمى كفالك تجريحا !  
 وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها صوت سعد يعلو  
 ويحتد . انسحب الى حجرته . يومها اشتبكنا ، علا صوتى وعلا  
 صوتها ثم خاصمتنى شهرا لم تبادلنى فيه حرفا .  
 فى البداية كنت مزهوة بها لا أرى أذى ولا أجمل منها ثم ركضت  
 نافرة وخائفة من عنفها المستبد . الآن لم أعد أركض ربما لأننى لم  
 أعد خائفة . أقول لنفسى هى أمى وأنا ابنتها وهذا قدر لا راد له وهى  
 لا تملك الآن أن تملى على حياتى فلماذا لا أقبلها كما هى ؟ ولكنى  
 لا أقبلها كما هى وأظل أتساءل لماذا تختلف أمى الى هذا الحد عن أم  
 سميرة مثلا . خالتى سيدة على عكس أمى لا يقلقها امتلاء جسمها  
 لها وجه قمحى مستدير يؤكده فرق فى المنتصف تصفف على جانبيه  
 شعرها الأجدل الذى بدأ يفزوه الشيب . تلبس أثوابا منزلية متواضعة  
 تفصلها بنفسها على ماكينتها « السنجر » ذات اليد . باب شقتها  
 لا يفلق أبدا وزوارها يأتون فى كل وقت ، جيران وأقارب ومصارف  
 يأتون لطلب النصيح أو المواساة أو كوب من الزيت أو جنيهين حتى قبض  
 المرتب أول الشهر أو للثروة وشرب كوب من الشاي . ربت خالتى  
 سيدة وأولادها وأطلقتهم فى الدنيا احرارا يفعلون ما يروق لهم ، لا تطلبهم  
 بشئ بل وتقبل خياراتهم حتى وأن لم تكن تفضلها ويظل صدرها  
 واسعا ويدها ممدودتين وفى المينين نظرة تماطف ومحاولة للفهم  
 فلماذا عندما جرؤت على اعلان أننى سوسن ولست خديجة اسقطت  
 أمى ذراعيها وأدارت عينيها وانكرتنى ؟!

أسأل عن مصدر الاختلاف بين المرأتين هل هو طبع أم تطبع  
 مرده حياة عانت خالتي سيدة التضحية وانكار الذات ولم تعلم  
 أمى سوى التملك والاستداد ؟ هل خالتي سيدة اقل ذكاء من أمى  
 وأضعف شخصية ؟ أم أنها أرقى وأطيب وأحكم ؟ وهل العصا واللجام  
 اللذان تمسك بهما أمى من معدات الطبقة التى تنتمى إليها ؟ وانصح  
 هذا فلماذا يختلف أبى عنها الى هذا الحد ؟! انه أكثر سلاسة منها  
 يمكن التفاهم معه حتى عندما لا يتقبل ما أقوله أو افعله يعلن اختلافه  
 ولكنه لا يشتعل كالنار وينفجر فتتطاير الشظايا فى وجه محدثه .  
 انه سهل العشر وسفول ويحبها « افعل ما تريدنه ياخديجة » ،  
 « الأمر لك » ، « ولما لا ... اليس هذا ما تفضلينه ؟ » تكرر العبارات  
 فى بيتنا كالأزمة لحياتنا اليومية . سلمها كل شيء عن طيب خاطر لأنه  
 منهمك فى عمله الذى يستوعبه من الصباح الى المساء . يعمل طول  
 الوقت وعندما يعود الى البيت يفرط فى تدليلنا كالأب المساند من  
 السفر . هو يقدق ويدلل وهى تمسك باللجام وترقع بالسوط وتوجه  
 بالمهماز لأنها تريد لنا السبق والفوز ، هذا ما تقوله وتعتقد .  
 تفزعنى وأحبها ، ليس فقط لأننى نشأت على حبها ولكنى أحبها  
 لأنى أحبها وأعى تلك اللحظات التى تفاجئنى نفسى وهى تسعى إليها  
 تطالب القرب والقبول وارتيك لأنى لا أعود أفهم ان كانت سوسسن  
 الواقفة بعيداً تحمل الف مأخذ على خديجة ، واقفة بعيداً حقاً بكامل  
 روحها أم ان شيئاً ما بنسبت منها ويخطو متلصصاً الى المرأة الواقفة  
 هناك يفتح ذراعيه ليطوقها وهو يهمس : « أنظرى الى يا أمى فأننا  
 أحبك ! »

فهل تطوقنى أمى أم اننى قطعت الرباط . أقيم وحدى ولا يملئ  
 خطوتى إلا ما أفتنح به وأعترف من ضرورة ... انقطع الرباط ...  
 انقطع ولكنه يترك علامته كمنك العقدة القائرة فى منتصف البطن تميز  
 جسد الإنسان منذ ولادته وإلى الأبد .

اليوم رأيته قال وهو يبتسم ويرفع يده بالتحية :  
- كيف حالك يا سوسن ؟  
قلت دون أن أبتسم :  
- لا بأس .

وابتعدت فكيف يمكن للمرء أن يركض محمومًا في اتجاه انسان  
ثم يعود يركض في الاتجاه المعاكس ؟ وكيف يتحلل الشيء البهي  
كوردة فيثير في النفس التقزز والنفور ؟

عندما دخلت الى بيت أمين في تلك الليلة ورأيت جالسًا ضمن  
الجالسين اندهشت الى حد الارتباك وملت على أمين أهمس في أذنه  
« لم أكن أعرف أن الدكتور عبد الموجود صديقك » ابتسم أمين بزهو  
طفولي « انه صديقي جدا . لقد عاد من السفر الاسبوع الماضي » .  
صافحته كما صافحت الآخرين وجلست باستحياء في حضرة الاستاذ  
لم يكن يعرفني ولكنني كنت أعرفه فقد درس لي عامين في الجامعة  
وكنت واحدة من مئات التلاميذ الذين كانوا يجلسون في المدرج  
مأخوذين بعلمه وبلاغته .

كان في الاربعين أو ربما تجاوزها بسنوات قليلة قوى البنية  
وحلو القسومات له عينان دعجاوان وحاجبان مقرونان وششارب  
أسود كث يلتقي بلحية تغطي ذقنه تماما وتكاد تخفى امتلاء شفثيه .  
كان أسرا في شكله وحديثه وكتاباته ومواقفه وكنت أجلس في المدرج  
أطلع اليه وأتابع ما يقول فيبدو لي ساطعا وبعيدا كنجوم السماء أو  
السينما ولكنه الآن كان يجلس على بعد شبرين عني يتحدث ويضحك  
بعادية والفة مذهلة .

ثم قام ليعد القهوة ووجدت نفسي أتبعه الى المطبخ . وقف يصنع  
القهوة ووقفت أنظر اليه . حدث شيء ، شيء ما حدث فما الذي حدث ؟  
لا شيء . رجلا يصنع القهوة وامرأة تنظر اليه فيحدث ذلك الشيء  
الذي يسقط كل الايام السابقة مصفرة وغريبة ويابسة كان لم تدب  
فيها حياة قط ويأتي بأيام تورق وتفتح وتوهج بهية وجديدة  
وخضراء . هل هكذا حب النساء أم أنني التي أصابها الحب كصاعقة  
فصارت تركض في اتجاه من تحب كأنمسا الركض اليه هو الوجود

وعلة الوجود ، وهل كان حيا أو شبقا أم كان الاستاذ الذى أسرنى  
بمحاضراته وكتبه ومواقفه قد كسب الجولة مسبقا ؟  
صرنا نلتقى مرتين فى الاسبوع ، هكذا رأى من المناسب وهكذا  
كان . مرة نتناول غداءنا معا ونمضى ساعتين من الثانية حتى الرابعة  
ومرة نلتقى مساء من السابعة حتى التاسعة . نتحدث وأسمع مأخوذة  
كطفلة أمام خشبة مسرح مفردة لمرض رجل واحد يروح ويجىء  
يصول ويجول ، يستعرض قدرة مبهرة على تحويل مفردات التجربة  
الى أفكار وأفكاره الى حياة . مدهش كما هو يدخل الارنبه فى سترته  
ويخرجها من كمه مناديل ملونة ، يقلب قبعته على المناديل الملونة ثم  
يرفعها فتجد الارنبه . وأنا طفلة بين يديه يهرها عرض الرجل  
الواحد ويأسرها أن العرض مقام لاجلها فكيف لامرأة تجاوزت الخامسة  
والعشرين أن تنهر هكذا كطفلة .. آية حق وآية بلاهة أم هو الحب  
يسلب الانسان عقله وكيف وانبهارى قائم على أحساس جارف بذكائه  
وعلمه وقدرته على التحليل السياسى والتاريخى وعلى استخلاص جوهر  
المسألة وقانونها من ركام التفاصيل وصياغتها بوضوح وفصاحة ؟!  
كان ذكيا وبليغا وكنت أحبه .

قالت لى سميرة أنها قلقة بسبب هذه العلاقة .

- لانه متزوج ؟

- لانه متزوج وأيضا لانه مقلق .

- ولكنه متزوج وغير متزوج . لا شئ يربطه بزوجه . انهما  
يسكنان معا من أجل ابنتيهما . وأنا يا سميرة لا آخذ ما ليس لى ولا  
أتعدى على حق أحد !

اندفعت كلمائى بلا قصد حادة وغاضبة . ألمنى كلامها واستفز  
طاقتى للدفاع عن النفس . ولكنها عنيدة ، كررت بهدوء كأنها لم  
تسمعنى :

- لا أطمئن له .. به خلل ما لا أدرى ما هو ، خلل ليس فى

التفاصيل بل فى الجوهر ، سوسن أنا متأكدة !

قالتها بعناد البغال وحسم الانبياء وتركها حائقة أقول لنفسى ان  
صديقتى غبية فمن كان الغيبى فينا ؟!

قلت لعبد الموجود : « حدثنى عن زوجتك » قال : « ألم أفعل  
من قبل ؟ » كان قد حكى لى عن ملابسات زواجه بها أثناء دراسته فى  
الخارج « كنت غريبا ووحيدا وكانت هى صغيرة ولطيفة وابنة  
استاذى الذى فتح لى بيته كائنى واحد من الأسرة .. كانت قصة  
عاطفية عابرة ولكنها للأسف انتهت بالزواج وطفلتين فلم تعد قصة



عابرة رغم أن العاطفة استنفدت نفسها وانتهت « كان ذلك ما قاله لي في مرة سابقة ، هكذا بشكل مقتضب ولكني في هذا اليوم كنت أريد أن أسمع منه بأسهاب . قال :

— لماذا تريد أن أحدثك عنها ؟

— أريد أن تحدثني عنها ، عن علاقتك بها .

— ليس لدى ما أقوله ، إنها امرأة طيبة محدودة الامكانيات وليس بيننا سوى البنيتين وحكاية قديمة .

— فقط ؟

— فقط !

نظر الى ساعته وقال أن موعد ذهابه قد حان . كان دقيقا كساعة منظما كحاسب آلي يبدأ يومه في الخامسة الاثلاثا صباحا بتمارين رياضية لعشر دقائق ثم حمام بارد وفنجال قهوة بالحليب ويجلس الى مكتبه من الخامسة الى الثامنة والنصف بعدما يتناول افطاره وينزل الى الجامعة .

ولم ألتق بزوجة عبد الموجود الا عندما دعاني لقضاء ليلة رأس السنة في بيته .

وفي الليلة المحددة ذهبت . كان بيته في المعادي ، شقة بالطابق الاخير في عمارة حديثة . أدهشني ثراء البيت والعناية الكبيرة المتبدية في تأثيثه وترتيبه . كانت أرضية الصالة مغطاة ببساط أبيض سميك الوبر يمتد من الحائط الى الحائط كذلك كانت وسائد الارائك والمقاعد الوثيرة من قماش عاجي اللون تتخلله خيوط ذات لمعة فضية أما الموائد الصغيرة فكانت مسطحاتها من زجاج دخاني اللون وضعت عليه منافض للسجائر مصنوعة من الفضة أو الكريستال ولمحت في أحد الاركان زهرية ضخمة من الصيني الثمين عليها رسم تنين أسطوري وتحمل مجموعة من ريش الطاووس . سألتني عبد الموجود .

— ما رأيك ؟

— فخم ، ربما أكثر مما يجب !

قطب .

— وهل يجب أن يعيش المتقدمون في أكواخ ؟!

ثم ضحك .

— تعالى أعرفك على جين .

نادى عليها فجاءت . أدهشني جمالها . كانت امرأة قوية الحضور بدا ذلك واضحا حتي قبل أن نتبادل حرفا واحدا ، طويلة ممشوقة القوام أميل للنحافة لها وجه جميل المقسمات يعلوه بعض النمش

وشعر خيلى أقرب الى لون الحناء . وكانت تلبس ثوبا جميلا من القطن المطبوع . ابتسمت وهى تسلم على فبنت أكثر غذوبة وأقل قوة . قالت مرحبة بود أن عبد الموجود حدثها عنى فاندھشت للمرة الثالثة .

ما الذى أشعرنى باننى وحيدة ؟ جلست بين المدعوين أبحت عن كلام أقوله فلا أجد ، ان توجه الى أحد بالحديث أجبت باقتضاب وعدت للصلوات . ما الذى أتى بى الى هنا ؟ لازمنى السؤال طوال السهرة كما لازمنى شعور بالدهشة والخرج . كان عبد الموجود مشغولا عنى بضيوفه الآخرين . ربما استفتته عبارتى عن فخامة البيت وربما كان يتعمد اهمالى حتى لا يقتضج أمرنا ولكنه عندما انتصف الليل وأطفئت الانوار وتعالق الهمسات الضحكات فوجئت به يحيطنى بذراعيه ويقبلنى فانتفضت خائفة ثم أضيئت الانوار درت بعينى أبحت عن جين فلم أجدها ولما سألتها عنها قال : « لابد انها فى المطبخ تستعد لتقديم العشاء » .

غادرت بيت عبد الموجود يثقلنى شعور بالفئيان وآلام فى الرأس وعندما وصلت الى البيت دخلت الى دورة المياه وانحنيت على المراض وتقيأت ، تقيأت كثيرا وطويلا حتى اننى جلست على الارض لصقق المراض لا أقوى على الحركة .

فى اليوم التالى اتصلت به :

- أريد أن أراك .

- موعدنا بعد غدا .

- ولكنى أريد رؤيتك الآن .

- لا وقت لى ولكن لو كان الامر ضروريا جدا آتى ، هل تريدنى

لامر ضرورى جدا ؟

- نعم .

جاء فقلت :

- عبد الموجود اعتقد أن الامور لا يمكن أن تستمر على ماهى عليه .

- لا أنهم .

- أقصد استمرار علاقتنا ... وجود زوجتك ...

- لماذا ؟

- ...

- لا أفهم ما الذى يقلقك . قلت لك وكنت صادقا اننى لم أعد

مرتبطا بها . عاطفيا أنا حر ومن الطبيعى أن أنشئ علاقات تفى باحتياجاتى .

- ولكن زوجتك حاضرة في حياتك ، تعيش معك وتستقبل ضيوفك وتمد لك طعامك و ..

- لا تكوني ساذجة .

- لا أفهم .

- هناك اعتبارات عملية . نعم جين زوجتي ، شريكتي في البيت وأم أطفالي هذا موضوع أما أن أحب وأصدق فهذا موضوع آخر ، من حقي - وأنا ؟

- أنت في وضع أفضل مني لانك حرة تماما حتى من الارتباط الشكلي .

كدت أقول له انني أريد الارتباط به بالشكل الطبيعي والمتعارف عليه بين البشر منذ آلاف السنين ، أن أتزوجه وأقيم معه وأنجب منه أطفالا ، ولكنني أحجمت .

- لسنا صغارا ياسوسن وهناك أولويات والاولوية المطلقة عندي هي قدرتي على العمل ، على الكتابة والمشاركة الفعلية وهذا أمر لا يخفى على وحدى بل يتعلق بدور علمي وثقافي وسياسي نذرت نفسي له .  
تصورى لو اننى كلما أحبيت امرأة ركضت خلفها لأبدأ أطارا جديدا لحياتي لن أتمكن من كتابة أى شيء ولا المساهمة فى أى فعل ...  
سأنتهى . أنا اذن بحاجة الى الاستقرار لاكون منتجا . تزوجت جين منذ خمس عشرة سنة ، لى منها بنتان وبيننا بيت و حياة مشتركة ، احتاج هذا ولكنى أحبك أنت ولا أرى تنافرا بين الأمرين !  
- ولكن هذا الوضع مهلك لى .. وغير أخلاقى .

ضحك .

- أنت متخلفة .

- أنا ؟!

استجمعت شجاعتي وقلت لها :

- ولكنى أريدك معى . أريد أن تربطنا حياة مشتركة .

- هذه أناية .

- أناية ؟!

ربما شعر انه تسرع فى الكلمة . ربت على كفى وهو يبتسم :

- تعرفين اننى أحبك ولكنى أفكر بشكل عملي وليس بمنطق « عش

العصفورة يكفيننا » لا أحد يعيش على الحب ياسوسن سوى الإبطال الاغبياء فى الافلام العاطفية الرخيصة .

- ونحن طبعاً لسنا اغبياء ولا حياتنا فيلماً عاطفياً رخيصاً ، اليس

كذلك يادكتور ؟!

وذهبت وعلى فمي ابتسامة ساخرة ومرة باغتته كما باغتني أنا نفسي فلم أعد لهذه النهاية ولم تخطر لي ببال . تركته ومشيت في طريقي الى البيت بهدوء واتزان كأنني لم أكن أركض تجاه رجل أحبه فاصطدمت بجدار من زجاج شج رأسي وجرحني وترك كدماته الزرقاء تعلم في جسدي .

ما الذي جعلني أقع في حب عبد الموجود اسماعيل ؟ شغلني السؤال لشهور وعندما طرحته على سميرة قالت : « لكل انسان قانونه النفسي » فقلت : « وهل قانوني هو الوقوع في حب الانسان الخطأ ؟ »

هادي . . . الحب الاول . . . ذلك الجنون الذي يعتري الطائر في السماء فيضرب بجناحيه كأنما أصابه مس من كهرباء أو حمى . أحبه أحب كل شيء فيه ، شعره الأجعد ، عينيه الصغيرتين نظارته الطبية ، فمه الكبير ، نحول جسده ، صغر جسمه ، ابتسامته الخبيثة ، ينطلقون « الجينز » وقيصه القطني .

همست لي زميلتي نجاح وهي تقف بجوارى في طابور الصباح بالمدرسة :

- ذكريني في الفسحة ، سأقول لك سرا .

- ولماذا لا تقولينه الآن ؟

- لا وقت ، ثم انه سر ، لا بد أن نقف بعيدا حتى لا يسمعنا أحد .

ثم وهي تهمس في أذني :

- انه سر خاص بمظاهرات الطلبة .

على مدى الحصص الثلاث لم أفعل سوى انتظار انقضائها . أنظر في الساعة ثم أعود وأنظر في الساعة . هل شاهدت نجاح المظاهرات؟ ولكن كيف تشاهدها وقد كانت بالقرب من الجامعة في الجيزة وهي تسكن في عابدين ؟ لا بد أن أحدا حكى لها ، ترى من الذي حكى لها ؟ أنظر في الساعة وأحدق في وجه المدرسة وهي تشرح الدرس وأفكر في السر . وأخيرا دق الجرس .

انتحينا جانبا تحت شجرة التوت الكبيرة . قالت نجاح وعلى وجهها تقطبية من ينطق بأمر خطير :

- انه سر ، أقسمي ألا تفشييه لأحد .

- أقسم .

- لا ، قولي والله العظيم ثلاثة لن أقول .

- والله العظيم ثلاثة لن أقول .

قالت بصوت هامس رغم أننا كنا وحدنا في ركن قصي من فناء المدرسة :

- أخي هادي اشترك في المظاهرات بالامس وعاد الى البيت ورأسه مجروح ومربوط بالشاش الابيض ولما سأله أبي قال له انه كان يسمع معلقة أمريء القيس في فناء الجامعة ولم ينتبه فاصطدم بشجرة وجرح وذهب الى عيادة الكلية فربطوا له رأسه .

- وهل أخوك في الجامعة ؟

- في سنة ثالثة في كلية الآداب .

- هل معك صورته ؟

- لا .

- غدا هاتي الصورة ، لا تنسى !

أتت بالصورة ، تطلعت اليها فرأيتة جميلا وعندما ذهبت لزيارتهم وجدته أجمل . كان يتحدث بطلاقة وثقة وكنت أفهم بعض ما يقول ولا أفهم البعض الآخر فيزداد انبهارى .

خبأت صورته في كتاب التاريخ ، أفتحه وأتأملها : اسمه جميل وشكله جميل وكلامه جميل ولكن الاجمل انه عبقري .. أقول ذلك لزينب فتضحك : « عبقري ١٩ » فأؤكد بثقة : « نعم عبقري ! » .

كان في التاسعة عشرة وكنت أصغره بأربعة أعوام . يقول : « أحبك يا سوسن » وأقول : « أحبك يا هادي » نكتبها في الرسائل نهمس بها في التليفون ، نعيشها في التقاء عيوننا وتلامس أيدينا في اللقاءات الخاطفة .

وكان هادي يتقن التحليق في الاحلام ، يطير كأنه طائر ، طائر مدهش يلبس نظارات طبية ويدمن قراءة الكتب وترديد الاشعار . ويفنى لى أغنيته المفضلة :

في كل حي ولد عترة وصبية حنان

وكلنا جيرة عشرة وأهل وخلان

أميرة عاقلة وفي الحجلة ، العقل يطير

كانت صغيرة بصفيرة وكان هو صغير

ساعة ما تضحك مع أخوها تلاقيه بغير

ولما ترفع قلتهم تلاقيه عطشان

زمانه ماشى بخطوة تضم

زمانها كبرت وبقت أم

زمان جواب جاييلها يجرى على العنوان

في كل حي ولد عترة وصبية حنان

وكلنا جيرة وعشرة وأهل وخلان  
الفجر ييلاقى المغرب ويسجى ويروح  
والليل يرد على الشوارع شباك مفتوح  
هنا الرصيف وهنا السلم وهناك ياسطوح  
متعلقة كمام النونو في ديل الفستان  
زمانها كبرت وبقت أم  
زمان ضناهم في المدرسة كنز الاوطان

التحقت بالجامعة في نفس السنة التي عين فيها هادي معيدا بها  
بعد تخرجه وبدا لنا في تلك السنة الاولى أن الجنة فتحت لنا أبوابها  
فدخلنا نتسكع في أرجائها بخطوات كسولة نتحدث طويلا عن أنفسنا  
وعن الآخرين ، في السياسة وفي التاريخ ، نخسوس فيما مضى وما  
سوف يأتي ونطرح المخاوف والاحلام . نتحدث حتى يفيض الحديث  
عن الزمن المباح بين محاضرتين أو بين الوصول في الصباح والمغادرة في  
المساء . نودع بعضنا على دقائق ساعة الجامعة ونخرج من البوابة  
الحديدية « غدا نلتقي » ونلتقي لنجد جنتنا على حالها مشرعة الابواب .  
فماذا حدث ؟ كيف يتعكر ماء النبع ومن أين تأتي نباتات الوحشة  
وبأي قانون تتكاثر وتعيق المجرى وتسسد الطريق ؟ قال « أنت  
المسئولة ! » كنت أحبه ، أكابر في الصباح وفي الليل أبكى . فهل  
كان هادي يريدني وردة بين يديه خالصة له وحده ترقبها العيون عن  
بعد فتحمسه لانها له أم أننى كنت نافرة وعنيدة كما قال ؟! هل كانت  
يده التي تحيط بى يد العاشق التي تحمى وتضم أم كانت يدا تطوق  
وتمتلك ؟ أم كانت اليد واحدة في الحاليتين ؟ هل كنا طفلين عنيدين  
بددا قيمة بسلوكهما الاحمق ؟ وهل تدهور هادي لان علاقتنا تحطمت  
أم أن علاقتنا لم تدم لان شيئا بداخلى كأنه الجحش نفر وابتعد عندما  
لمح حللا كامنا ؟ كنت أحبه ، أتزين في المرأة لاجله وأقبل عليه بلهفة  
العاشقة وعندما ألفاه نختلف ، يعلو صوتى ويعلو صوته ، نتشاجر ثم  
نتخاصم ، وفي المساء أفتح كتبى لكى استعيد دروسى فلا استعيد الا  
خلافاتنا وتضطرب الحروف أمام عيونى الدائمة !

ذات صباح ذهبت اليه وقلت : « أتركنى وشأنى ، سارسب  
في الامتحانات ، هل يمكن أن تتركنى وشأنى ؟ » تركنى . لم نلتقى  
طوال شهرين ثم تصالحنا . وبدا ان الاوقات صفت وكذلك المياه التي  
عادت الى مجاريها ولم يكن هناك ما نتشاجر بشأنه . توقف نشاط

الاسرة بسبب الامتحانات ثم العطلة الصيفية واختفى كل الاولاد الذين كان يفار هادى من وجودى معهم .

بدأ العام الدراسى وبدأت الخلافات هذه المرة أعنف وأحد عرفت بها نجاح فتوسطت بيننا فى محاولة لمصالحتنا ، كل الطلاب والطالبات عيونهم عليكم ، لقد حسدوكما ! ، نهرهما هادى أما أنا فضحكت .  
حدجنى بنظرة صارمة قال مواصلا الكلام :

- سوسن أنا لا أمزح ، لا أريدك بهذا الشكل !

- وأنا أيضا لا أمزح ، هذا شكلى وان لم يكن يعجبك انتهيينا !

ولكننا لم ننته عام كامل من الشد والجذب ، واللهفة والتصادم .  
أركض نحوه وبركض نحوى وعندما نلتقى يعلو صوتنا وتتشاجر ، أتركه غاضبة وفى المساء ينحسر الغضب ليحل محله حزن واهن .  
أحكى لامين زميل فى الكلية وفى الاسرة : « تغير هادى يا أمين ، تغير . أحاول أن أفهم غيرته ولكنى لا أفهم هذا الحرص الذى استجد عليه فجعله يخشى أية كلمة أو لفظة تهدد مركزه كمعيد . ولو افترضنا أن ذلك من حقه فكيف يحق له أن يطالبنى بوقف أى نشاط بدعى أن ذلك أيضا ينعكس على وضعه . . . وماذا يفعل بى اذن عندما نتزوج ؟! »  
تجمعنى بأمين صداقة وألفة تجعل الحديث يجرى بيننا فى هدوء ويسر أفضى له بمشاكلى مع هادى ومع أمى ، أحده عن أبى وسعد وهو أيضا يحكى لى عن أهله فى القرية وأبوه الذى أراد له أن يدرس فى الجامعة ليصبح كالاستاذ عبد الصبور مدرس القرية التى يحلف أهلها بحياته .  
بعد انتهاء المحاضرات اجلس مع أمين لنناقش نشاط الاسرة الجامعية التى ننتهى اليها ونعد المادة التى سننشرها فى جريدة الحائط وعندما ننتهى لا ننصرف كل الى حاله بل نمشى سويا فى الطريق المؤدى الى كوبرى الجامعة نعبره ونواصل حتى نصل شارع القصر العينى فيتجه هو الى منطقة مجرى العيون حيث يسكن وأركب أنا الى ميدان مصطفى كامل .

فى ذلك اليوم قال لى أمين انه يريد التحدث معى فى موضوع هام فصحبته الى مقهى مطل على النيل بالقرب من الجامعة . . قال :

- تعرفين سميرة أليس كذلك ؟

كنت أعرفها عن بعد فهى زميلة لنا تصغرنا بعامين دراسيين وتشاركنا أحيانا بعض نشاطاتنا فى الاسرة . كانت فتاة سمراء دقيقة الملامح تتميز بتعليقاتها الساخرة وبديقتها الحاضرة وشيء من حدة عند الاختلاف . قلت :

- أعرفها

- أريد التقدم لخطبتها .

- وهل فاتحتها فى الأمر ؟  
 - لم أفاتها . . . لم تواتنى الجراءة . هل يمكن أن تسألها أنت  
 عن رأيها ؟  
 - هل تريد أن تفتحها فى موضوع حبك أم الزواج ؟  
 - وما الفرق ؟  
 - ليس من الأفضل تأجيل مسألة الزواج بعض الشيء . .  
 - ولكنى أحبها ، أنا واثق من شعورى ورغبتى فى الارتباط بها .  
 فإذا كنت تبادلى الشعور لا أرى لماذا لا أسلك بالاصول وأكتب لوالدى  
 فيأتى من البلد ويطلبها من أهلها .  
 قلت وأنا أضحك :  
 - تناقش فى السياسة كأنك مولود فى هايد بارك وتبقى رغم ذلك  
 ريفيا طيبا ! لما لا تشجع وتأتى معى الآن الى الكلية وتقول لها : « سميرة  
 أنا أحبك هل تحبيننى ؟ » .  
 لحظتها سمعته ينادى ، التفت باتجاه الصوت . كان هادى يقف  
 على بعد بضعة أمتار . قلت :  
 - أهلا يا هادى تعال  
 قال دون أن يتحرك من مكانه :  
 - لو سمحت أريدك دقيقة .  
 قمت اليه متوجسة ، كان وجهه متكدرا .  
 - ماذا تفعلين مع هذا الرجل ؟  
 - لماذا تقول : « هذا الرجل » انه أمين وأنت تعرفه .  
 - أجيبى على سؤالى ، ماذا تفعلين مع هذا الرجل ؟  
 - نتحدث !  
 ابتسم متهمكا :  
 - فى أمور الدراسة ؟  
 - لا ، فى مسألة شخصية .  
 - سوسن أنت سافلة !  
 قالها فى هدوء صارم كأنه قاض ينطق حكما . .  
 - أنت السافل !  
 أدت ظهري وعدت للجلوس مع أمين . بعد أسابيع عندما علم  
 هادى بأن أمين خطب سميرة جاء واعتذر ، قال انه أخطأ ، قال انه  
 بحاجة لى ولكنى كنت قد أدت ظهري ومضيت مبتعدة .



ضفطت على الجرس وانتظرت حتى فتحت لى امرأة سمراء نحيلة  
تلبس ثوبا منزليا من القطن المنقوش .

- جئت لمقابلة السيدة زينب عبد الحميد .

دعتنى المرأة للدخول .

- اسمى سوسن كمال ، هى لا تعرفنى ولكن .

قاطعتنى المرأة :

- هل أبوك مريض ؟

اذن فالمرأة أمها أم أنها المريية والامر مشاع ؟ قلت بحدة :

- هل بإمكانى رؤية مدام زينب ؟

- أنا زينب يا سوسن !

حدقت فيها ، كانت المرأة التى هتفت بحميمية : « أنا زينب

يا سوسن » قد تجاوزت الستين وكان هذا آخر ما توقعته .

عندما أخبرنى أبى بالامس وهو فى غرفة العناية المركزة

بالمستشفى انه متزوج من امرأة أخرى وانه يريد منى أن أذهب إليها

قبلت رأسه ووعده أن أفعل ولكن ما ان غادرت باب المستشفى حتى

انفلتت بصدرى دوامة عاتية من الانفعال ولم يكن أبى هو مركزها بل

أمى شاحبة الوجه تروح وتغدو فى الممر المجاور لحجراته تذرف الدمع

وهى تعدد مزايا الزوج طوال خمسة وثلاثين عاما . كنت غاضبة

ومتمررة أكرر لنفسى أن الرجال سفهاء وأناثيون .

- يريد أن يرانى أليس كذلك ؟

- انه يريد أن يراك .

بدأت تبكى وبدأت بالامس كابوسا . أردت واجتهدت فى ايجاد شىء

أقوله ولم أجد فقممت لانصرف وقلت وأنا أصافحها :

- سأأتى غدا فى الخامسة مساء لأخذك اليه .

لم أنتظر المصعد ، هرولت على الدرج . ما الذى حدث ؟ لم يطلب

منى أبى أن أتى بها اليه . فلماذا قلت لها ذلك ؟ وما الذى تعنيه لى

حتى أشفق عليها ؟

رقاد أبى مريضا هكذا بلا حول ولا قوة يوجعنى . أرغب فى

تدليله والحنو عليه ومع ذلك فزواجه من امرأة ثانية ثمرة مرة تترك

علقمها فى حلقى سواء بلعتها أو بصقتها .  
مات أبى . أمى تنتحب وتلطم وتشق ثوبها وتنسدى سعدا وهو  
بجوارها وتبدو واهنة ومسكينة كأنها ليست خديجة هانم ، الملكة ،  
التي يستنفر ديب خطواتها فى ممرات المستشفى كل العاملين به .  
أراقبها وأبكي فى صمت ، وأعى المرأة الأخرى فأبكي أكثر .  
انتقلت للإقامة مع أمى حتى انقضاء أربعين الحداد . المأ الذى بدا  
فائرا فى الأيام الأولى سكن وتحول الى حزن صاف تتركز فى قاعة  
ركدة ثقيلة وداكنة كركدة القهوة المرة التى تشربها مغلية مرات  
لا تحصى أثناء الليل والنهار . لم تعد تنتحب ، أو تصرخ أصبحت  
ساحبة وساكنة .

بعد الأربعين بيوم واحد تشاجرت أمى مع سعد . قال لها سعد  
انه سيعود للإقامة فى الاسكندرية لان السفر يوميا مجهد فقالت له  
أنها تريده أن يترك عمله هناك لينتقل نهائيا الى القاهرة .  
- لتكون بجوارنا ، وأيضا لأن المستشفى بحاجة لك . سعد لقد  
صرت طبيبا لتدير هذا المستشفى .

- ماما أنا لا أريد ولا أقدر على ادارة المستشفى .  
- كلام فارغ . . . أنت الآن رجل مسئول وعليك أن تعود الى  
القاهرة لتتحمل مسئولياتك .

- ما رأيك يا ماما فى بيع المستشفى ؟  
اندفعت أمى تصرخ فيه كأنه لم يتجاوز السابعة من عمره :  
- اخرس ، أبوك لم يتعب فى بناء هذا المستشفى لكى تبيعه بعد  
ساعات من وفاته . اخرس يا وقح !

تدخلت زينب وتدخل مجدى وتدخل راندا قالوا أن سعدا لم  
يقصد وانتهى الامر بسعد يعتذر ويقبل رأس أمى فانسالت الدموع من  
عينها أما هو فكان وجهه جيريا كالحجر .

غادرت المنزل لا أقصد مكانا بالتحديد أشعر بضداع فى رأسى  
وبواد غثيان . وكانت أصوات أمى وسعد والآخرين مازالت تطن فى  
رأسى . ذهبت لزيارة سميرة فلم أجدها فواصلت المشى فى الشوارع  
ولم أنتبه الا وأنا أقف أمام بابها أدق الجرس . ما أن فتحت الباب حتى  
أحاطتنى بذراعيها وبدأت تنتحب وتكرر :

- اخص عليك يا سوسن واحد وأربعون يوما وأنا أنتظرك ، كل  
يوم وكل ساعة أقول تأتى ولا تأتى !

عقدت الدهشة لسانى وبدأت لى المرأة غريبة الأطوار . كانت  
الألفة التى تحدثنى بها وما تتعشمه من سلوكى يثير الاستغراب حقا

( تذكرت الطريقة التي قالت بها « أنا زينب يا سوسن ! » المرة السابقة كان علاقة حميمة تربطنا تجعلها ما أن تنطق بهذه الكلمات حتى ألقى بنفسى على صدرها أقبلها واحتضنها ! ) هي فعلا غريبة الاطوار وهامى قد جلست ملاصقة لى وامسكت بكلتا يدى بين يديها كانت تسألنى عن زينب وسعد وأمى فأجبته باقتضاب دون أن أفهم شيئا . طلبت أن أذهب الى الحمام وقالت أنها ستصنع لى كوبا من الشاي « أم تفضلين القهوة ؟ » « قهوة » فى الحمام وضعت رأسى تحت الصنبور وتركت الماء البارد ينسكب على شعرى . سألتنى وهى تقدم لى القهوة :

– هل بللت شعرك يا سوسن ؟

– عندى صداع

– هل آتى لك بمسكن ؟

– لا داعى ، سأشرب القهوة .

خيم الصمت وبدا أن المرأة غارقة فى عالمها وددت لو كانت تجلس فى المقعد المقابل تجلس فأتمكن من رؤيتها دون أن أختلس النظر إليها . كانت امرأة نحيفة بشرتها فى لون القمح عندما تلوحه الشمس تماما فيصبح كالبن الفاتح وكان وجهها رغم تقدمها فى السن يكاد يخلو من التجاعيد . كانت المرأة قد احتفظت بجمالها الخاص يؤكد شعرا أسود أملس خطه شيب قليل – جدلته فى صغيرتين طويلتين .

– وما العمل الآن يا سوسن ؟

تطلعت الى بشىء كالرجاء ولم أجد ما أقوله . خيم الصمت ثانية ثم قالت :

– أنت لا تعرفين ، لم يكن زوجى فقط ، لعبنا معا ونحن أطفال ولما كبرنا بدا وكأن الدنيا لا تأخذ كل منا فى طريق اللى تقيدها .

قلت انى ذاهبة ، لم تستبقنى .

لم أتم طول الليل . تارة أشعر أن سلوكى معها كان قاسيا وتارة أخرى أشعر اننى محقة ويملؤنى الغضب وأنا أنتصر لنفسى « هذه المرأة فى النهاية تتحدث عن علاقتها بأبى ، علاقة كانت أمى الطرف المخدوع فيها عمرها بأكمله » أقول اننى قسوت ثم أقول اننى لا أشاهد فيلما سينمائيا على شاشة تعود قماشية وبيضاء ما أن تتوقف آلة العرض وتضاء الانوار ، لست حجرا ! أشعر أن الواجب والانسانية كان يقتضيان أن أنصت لهذه المرأة الوحيدة ثم أضيق بالامر كله والعن

اللحظة التي اطلعتني فيها ابي على سره وأقرر أن مافعلته هو العقل بعينه . مات ابي ودفن فليدفن سره معه . لن أذهب الى هذه المرأة بعد ذلك . لا أحد يسعى الى الالم بقدميه ، ولتذهب الى الجحيم أو الجنة ، لا شأن لي بها !

ورغم ذلك الرأي الذي بدا أنني استكنت اليه في نهاية ليلة مؤرقة فقد ذهبت اليها ما ان انتهيت من عملي في اليوم التالي . قلت لها بصراحة ربما فاجأتها أنني جئت لاعرف منها حكايتها مع ابي . « لكي أفهم ، وربما لو فهمت أتصرف بشكل أكثر اتزاناً » .

بقيت في بيتها من الرابعة بعد الظهر حتى الساعات الاولى من الفجر وعندما أردت الانصراف لم تسمح لي : « لان الوقت متأخر ولا يصح أن تنزلي بمفردك في هذه الساعة » ثم بشيء من تلعلم : « لست ضيفة في هذا البيت . . » وكادت أن تكمل ثم توقفت .

يومها حكّت لي زينب عبد الحميد قصتها مع ابي كأنها فيلم سينمائي طويل شاهدته في جلسة ممتدة لم تقطعه سوى فواصل قصيرة شربنا فيها الشاي والقهوة .

« كان جدك صفوت يسكن في احدى الشقق بعمارة سكنية من أربعة طوابق بالاسكندرية وكان ابي رحمه الله يعمل بوابا بنفس العمارة ، هاجر من أسوان في شبابه بحثا عن لقمة العيش ثم تزوج بأمي وهي من الاسكندرية وخلف منها أربعة كنت أصغرهم . كنا جميعا نساكن حجرة واحدة بالطابق الارضى للعمارة . وكان ابي رغم فقرنا شديد الكرم يحسن وفادة الضيوف من اقارب ومعارف وبلديات وأغراب يعاملهم معاملة الاهل لانهم اقارب للمعارف والبلديات ، كان أميا يؤمن بالله والتعليم . يكرر علينا : « لو تعلمتم يا أولاد تنفتح أمامكم كل الابواب المغلقة » وأذكر أنه عندما نجح أخي محمد دون تفوق ضربه ابي ضربا مبرحا وهو يصيح فيه هائجا « يا حمار يا ابن الكلب أضعت على نفسك المجانية فكيف لي أن اعلمك ! » .

كانت أمي تقضى النهار في غسيل ملابسنا واعداد أكلنا الذي يشاركنا فيه أي ضيوف مفاجئين وتمسح سلم العمارة في حين يقضى ابي اليوم في شراء لوازم السكان ليجمع قروشاً اضافية تفي بلوازم تربيتنا وتعليمنا و « اللقمة الهنية التي تكفي مية » .

كان كمال طفلاً وحيداً وكنا أربعة وكان يجب أن يلعب معنا في بئر السلم أو أمام البيت . نتفق ونختلف ونتشاجر ونتصالح كعادة الاطفال وعندما يعود أبوه من عمله ويقول له « اطلع يا كمال لتأكل

يقول : « سأكل عند عم عبد الحميد » فاسمع ابوه يقول له : « أنت وش فقر ! » ولكنه يتركه يأكل معنا .

كنا نتناقش أنا وكمال . هو يقول أن الاولاد أحسن من البنات لانهم اقوى وأذكى . أنا مثلا أشطر منك فانا أقرأ الفرنسية وأكتبها وأنت حمارة لا تقراين الا فى كتاب المطالعة الرشيدة ، فأقول له : « أنت أكبر منى بستين ومع ذلك أنا أستطيع عبور شارع الترمواى وشراء صندوق من زجاجات المياه الغازية أجمله على رأسى وأعود به وأصعد الى الطابق الرابع عندما تطلب منى أمك ذلك ، وأنت لاتستطيع ! » كان كمال يذهب الى « كلية سان مارك » تاتى سياره المدرسة لآخذه كل صباح فينزل بالزى الخاص بالطلاب وفى يده حقيبة جلدية ويركب . أما أنا واخوتي فكنا نذهب الى المدرسة الابتدائية القريبة سيرا على الاقدام بملابسنا العادية نحمل كتبنا فى إكياس من « النمرور » تصنعها لنا أمى .

ثم تركنا البيت ، صممت المرأة ، ترك أبى عمله بسببى سكنت مرة أخرى ، بسببى أنا وكمال . لم يحدث شئ . ولكن أبى كان صارما وخائفا أيضا ، وربما كان على حق . كانت والدته كمال قد نادت على وطلبت منى شراء أغراض من البقال . اشتريت وصعدت لاعطيها ما طلبت ولكنها لم تكن فى البيت . قال كمال انها خرجت ودعاني للدخول . كانت أمه تكره أن يدعونا الى البيت وربما كان ذلك هو السبب الذى جعله يدعونى وجعلنى أقبل . دخلت معه الى غرفته وأجلسنى على السرير وأتى لى بالعابه ورحنا نلعب ونضحك . جاءت أم كمال وفتحت الباب ورأتنا نجلس متجاورين على السرير فوبخته وطردتنى . ولا أدرى ما الذى قالت له لآبى ولكنه فى المساء انهال على ضربا حتى أسال دمي وقال : « لو سمعت انك دخلت بيتهم سأقتلك ! » وفى اليوم التالى أعلن أنه سيبحث عن عمل آخر واتنا سننتقل . . وانتقلنا كنت فى الخامسة عشرة عندما عرض على أبوك الزواج للمرة الاولى . ضحكك وقلت « كيف ؟ » قال « أخطبك وعندما أعود طيبيا من انجلترا نتزوج » كنا صغارا ولكنى كنت أحبه . دخلت مدرسة الحكيمات من أجله . سافر ليدرس الطب ويصبح طبيبا وأردت أن أكون طبيبة مثله . ولم تمكثنى الظروف فدخلت مدرسة الحكيمات . غاب أبوك تسع سنوات زار فيها مصر أربع مرات . كان شاعرا وسيما لم أر أحمل منه ولكنه عندما عاد بعد سنتين من سفره كان يبدو كالنجوم الذين نراهم فى الافلام الاجنبية : الشارب الاقفر

الصغير ، الشعر الناعم المفروق من الجنب بعناية والملابس الانيقة . .  
قال لى انه يحببى ولا يريد الا أنا ولكنى كنت متوجسة يحدثنى قلبى  
انه لم يعد لى . وعندما سافر بعد زيارته الثالثة بكيت بحرقة من يودع  
الى الابد وصدق حدسى . أصبحت رسائله كالاعیاد لا تأتى الا مرة فى  
السنة . وعندما مرض أبى قال لى وهو على فراش الموت : « يا زينب  
جاءك أكثر من عريس ورفضت . ان كنت تنتظرين كمال فانت واهمة .  
البهوات أنذال لا يحكمهم شرف ولا تربطهم كلمة » فقلت له « أنا لا أنتظر  
أحدا وكمال تربى معنا وهو كأخى لا فرق » وكنت أكذب !

عندما عاد أبوك من الخارج نهائيا لم يخبرنى لا قبلها لانتظره فى  
الميناء كما فى المرات السابقة ولا بعدها فالتقى به ثم عرفت أنه خطب  
وتزوج . وكنت أعمل حكيمة فى مستشفى بالرمل . فى الاول كذبت  
الخبر ثم مرضت . . كانت أياما صعبة استمرت ثلاث سنوات ثم  
تزوجنا وكان ذلك منذ ثلاث وعشرين سنة . احتفظت بعملى وبقيت فى  
الاسكندرية لعدة أعوام ثم أصر أبوك على تركى العمل وانتقالى الى  
القاهرة . استأجر لى هذه الشقة وانتقلت . والآن ذهب كمال ولم يعد  
هناك معنى للبقاء .

دخلت لانام وأنا فى حالة من الأعياء الشديد وقررت اننى سوف  
أقضى ليلة ثانية من الارق بعد كل ماسمعت وأيضا لعدم تعودى على  
المكان ولكن ما أن وضعت رأسى على الوسادة حتى رحت فى سبات  
عميق .

طوال أسبوعين كنت أذهب الى عملى ثم أذهب الى أمى أقضى معها  
بعض الوقت ثم أعود الى بيتى وفى الطريق أتوقف عند بقال مجاور  
أتصل تليفونيا بزينب عبد الحميد « هل أنت بخير ؟ هل تريدین شيئا؟  
اذن مع السلامة » أفعل ذلك يوميا وبشكل آلى وأعرف أن الساعات منذ  
مغادرتى البيت فى الصباح حتى عودتى اليه بعد المغرب ليست الا  
طريقا الى لحظة أقصدها أختلى فيها بنفسى وأغربل هذا الكم الهائل  
الذى اختلطت فيه حبات القمح الأخضر بالحصى والقشر والطين الى حد  
بدا معه أنه لا قمع هناك وصرت أتساءل ان لم تكن الحكمة تقتضى أن  
ألقى بذلك كله الى سلة المهملات وأنتهى .

كان أبى قد استطاع أن يحتفظ لأكثر من ربع قرن بزوجتين  
أحدهما فى العلن معترف بها ولا تعلم ، والثانية فى الظل لا يصرف  
وجودها أحد وان كانت هى تعرف بوجود الجميع ، فمن الطيب ومن  
الشرير فى هذه الحكاية ؟ وأى الزوجتين ، الاولى أم الثانية ، هى التى  
أخذت ما ليس نها . وأيهما الاولى أصلا وهل زواج أبى من زينب يؤكد

«نذالة البهوات» أم يبرئه شخصا من النذالة رغم كونه من البهوات؟! كانت الحكاية التي قصتها على زينب عبد الحميد تطرح على شميناً كاللغز فهل كانت لغزا رخيصا أم انها الحياة تؤكد سقوط المسطرة والخط المستقيم ؟ وهل كانت المرأة صادقة فيما سردته وما هي حقيقتها ؟ هل هي المرأة التي أحبت بوفاء وعمق فأعطت كل شيء وارتضت حياة الهامش بقرب الحبيب أم انها الفتاة الفقيرة اشرابت بعنفها تطلعا الى الفتى الثرى الوسيم فما نالها الا تقطع جذورها فى الارض وذبولها بلا ثمر ؟ وكيف لى أن أتعامل مع هذه الحكاية بموضوعية المشاهد الخارجى وأنا طرف لان أبى وأمى طرفان فيها ؟ وهل يكون موقفى هو نفسه لو كنت ابنتها ولست ابنة خديجة ؟

تنهكنى الاسئلة فازداد نحولا بشكل ملحوظ يرده الناس الى حزننى على أبى وتؤكد سميرة أن هناك ما يشغلنى وأخفيه « فما الموضوع ؟ » أريد أن أحكى لها وأخشى أن تلقى فى وجهى بحكم قاطع من أحكامها : « أبوك نذل والست زينب بلهاء أضاعت عمرها بلا ثمن ! » لمن أحكى اذن ؟ قررت السفر الى سعد فى الاسكندرية . هو لا يعلم شيئا ولكن الامر يخصه فالرجل أبوه والمرأة زوجة أبيه وأنا أريد التحدث مع من يفهم .

صافرت الى الاسكندرية واستقبلنى سعد ورائدا فى محطة القطارات . فى الطريق الى البيت وجدت سعدا منكمشا وعازفا عن أى حديث ، وكل ما قاله قاله تهذبا ومجاملة فماذا حدث ؟ وعلى العشاء لم يقطع صمتنا سوى صوت الشوك والملاعق والسكاكين وصب الماء فى الأكواب . تعشينا ورفعنا الاطباق عن المائدة ووقفت مع رائدا فى المطبخ وهى تعد القهوة .

— ماذا حدث يارائدا . . سعد ماذا دهاه ؟

— منذ عاد من القاهرة وهو منكمش ومعرض . لا يذهب الى عمله ويظل نائما حتى الثالثة بعد الظهر وعندما يستيقظ لا يخرج وفى الغالب يشكو من صداع حاد ويقول أن الضوء يصيبه بالقيئان . يفضل أن يجلس وحده بلا ضوء فى حجرة النوم وعندما ألح عليه فى الجلوس معى فى الصلاة يجلس كالفانج أسأله : « هل نمت يا سعد ؟ » يقول : « لست نائما ، أسمع ماتقولين ، واصلى حديثك » ولكنى أعرف انه لا ينصت .

مسحت رائدا دمة بظهر يدها .

- سعد شديد الحزن على وفاة عمى كمال ، هذا صحيح ، ولكن  
الصحيح أيضا أنه معرض عنى ولا يريدنى .  
- غير صحيح ، أنه يحبك ويحتاجك . هو متعب ، هذا كل ما فى  
الامر .

ما أن شربنا القهوة حتى قالت راندا : « تصبجان على خير ،  
وانسحبت الى حجرة نومها وطلبت أنا من سعد أن تنتقل للجلوس فى  
الشرفة . سعد يقطن فى الطابق العاشر بمعمارة لا تبعد كثيرا عن  
الشاطئ . فى ضوء النهار يمكن رؤية البحر من زاوية بعينها من  
الشرفة أما فى الظلام فيبقى البحر حاضرا عبر صخب الامواج وصوت  
ارتطامها بالشاطئ والرائحة النفاذة .

- ما بك يا سعد ؟

- كما ترى !

- لم نعد صفارا . . والموت

- ليست هذه هى المسألة .

- ما الذى تريده يا سعد ؟

خلع نظارته فبدت عيناه الخضراوان تماما كعينى أبى وان تميزتا  
عنهما بمسحة طفولية لم يفقدها مع الوقت .

- المشكلة يا سوسن اننى لم أعد أريد شيئا ، لا أريد أى شيء !

ليست المشكلة فى ذهاب بابا ، المشكلة فى ماما . لا أدرى من  
أين أتتها هذه القدرة العبقورية على تحويل الأشياء الى رماد ، حبلى لها ،  
ارتباطى بها ، أحلامى ، فرحى ، حزنى ، كل شيء .

- هذا ما فعلته فى الماضى ، أنت الآن مستقل عنها ، هى فى  
القاهرة وأنت فى الاسكندرية فلماذا الاكتئاب الآن ؟

نظر الى بمزيج من عتاب وتساؤل :

- هل تفضين الطرف عن الحقيقة ؟

- سوف أعد فنجانا من القهوة ، هل آتيك بفنجان ؟

قامت الى المطبخ . ملأت الدلة بالماء ثم القمتها البين . ما الذى فعلته  
أسمى بسعد ؟ ولماذا فعلت ما فعلته وهى تحبه أكثر منى ومن زينب ؟  
فارت القهوة ولوثت موقد راندا الابيض الناصع فانهمكت فى البحث  
عن شيء أنظفه به . نظفته وغسلت الدلة وملأتها بالماء والقمتها مرة  
أخرى بالبين ووقفت أتابعها بتركيز حتى لا تغور . سعد متعب لم



أره هكذا أبدا . لا مجال للحديث عن زينب عبد الحميد أم أحداثه في الامر لعله يتشغل به عن حزنه واكتنابه ؟ فارتب القهوة للمرة الثانية فبدأ لي أني أصلح لمشهد في فيلم فكاهي صامت ومع ذلك كنت حانقة على نفسي وأنا أعيد الكرة وأنظف الموقد وأملأ الدلة . . في المرة الثالثة لم تفر سكبتها في فنجالين حملتهما الى الشرفة . قال سعد :

— كلما أنجزت أو حتى أردت انجاز شيء جميل دمرته أُمي ودمرت معه جزءا مني . نسفت حلمي في أن أكون فنانا وعندما ذهبت الى باريس ، اتذكرين ؟ أعادتني كالكلب . جرتني من رقبتي من الفندق الى الطائرة والمحسية انني تبعتها ! كتبت لـصديقتي الفرنسية التي ودعتها في المساء على أن نلتقي صباح اليوم التالي ، كتبت لها اشرح وأفسر وأعتذر مرة ومرتين وثلاث ولم تجب سوى برسالة من سطر واحد : « لقد خذلتني وأعتقد انك خذلت نفسك أيضا » .

— سعد كل ذلك انتهى ، أنت الآن مستقل بحياتك و . . . . .  
— أية حياة ؟! الحقيقة أن صديقتي الفرنسية كانت رغم صغر سنها حكيمة أنا فعلا خذلت نفسي وها هي حياتي الآن ، بين يدي رماد !  
— ولكنك طبيب لك دور ثم ان هناك راندا والطفل القادم .  
— طبيب دون المتوسط وزيجة لم أتجسس لها وطفل لا أريده . . .  
ما أجملها من حياة !  
كان وجهه شاحبا وشفته مرتعشتين وكان يحدق في كأنما يشهدني على ما يقول .

لم ينطق أي منا بكلمة بعد ذلك . جلسنا ساكنين على خلفية ارتطام الامواج بالشاطئ وكسارات الموج حتى قمنا لننام .  
لا أدري ما الذي أصابني ، اعترتني رغم سخونة جسدي قشعريرة فتدثرت بالغطاء . رأسى يوجع وصدري ثقیل كأنما أحمل عليه حجرا وعظامي تؤلمني أحس باعياء شديد يجعل مجرد تقلبي في الفراش مهمة صعبة أتجنبها . بقيت متعبة ومؤرقة فترة بدت لي طويلة لا نهاية لها وعندما غفوت كان نومي متقطعا تخللته الاحلام والكوابيس .  
في الاول رأيت أُمي . كانت أصبى وأحلى تلبس ثوبا ربيعيا من القطن المنقوش بالالوان الزاهية . كانت تضحك . ثم جاء شرطى وقال انه يريد أن يحقق في حادثة القتل واقتادنا جميعا للتحقيق .  
ثم دق ساعى البريد الباب . قال جئت لاعتذر عن الخطأ في البرقية ليس أبوك الذي مات ولكنها أمك . سألتني : « ألسنت ابنة الست ؟ »  
أجبت : « لا ، أنا ابنة الجارية ! » .

رأيت أبى قال : « ليس بإمكانك أن تكونى طبيبة يا سوسن دون أن تدخل المشرحة » . دخلت مكرهة وعندما كشفوا الغطاء عن الجسد المسجى بدأت أصرخ : « لا أريد . . . لا أريد ! » .

ولكن سعدا لم يصب بسوء . كان يقف بالقرب منى ويسألنى هل تشعريين بتحسنى ؟ « أنحنى على وابتسم بعذوبة فبدا وجهه وديما وحانيا . راندا أيضا هنا . لا ليس حلما بل مشهدا واقعيا . أيقنت من ذلك فأنتبهت لكونى مريضة فى السرير .

لزمتم الفراش عشرة أيام . فى اليومين الاولين اعترتنى حمى ثم انخفضت الحرارة الى معدل أقرب للطبيعى وان بقى الاعياء وآلام الرأس والصدر . وجاءت أمى من القاهرة وشعرت للحظة أن حالة من التواءم تحتوينى وكل من فى البيت .

- انى ذاهبة !  
قالتها سميرة وهى تغادر مقعدها وتخترق صفوف الجالسين  
فى القاعة قاصدة البواب . لحقت بها على الدرج وقلت بشئ من  
احتجاج :

- كنت أرغب فى الاستماع الى المحاضرين حتى النهاية .

- ولماذا لم تبقى ؟

- لأنك قمت فلماذا قمت !؟

- لأن مرارتى لم تعد تحتل !

سرنا فى الشارع الكبير المؤدى الى الميدان . لم تقل شيئا ولم  
اقل شيئا . وعندما وصلنا الميدان اقترحت ان تجلس فى مقهى  
لنتناول الشاي ولكنها قالت انها تفضل العودة الى البيت . اقترحت  
ان تأتى لقضاء الليلة معى ، رفضت .

ربما أخطانا فى الذهاب الى تلك الندوة . كان الأمر كئيبا وسميرة  
على حق . كان المتحدثون ثلاثة أحدهم وزير سابق والثانى كاتب  
سياسى معروف والثالث نقابى بارز قضى ثلاثة عشر عاما من عمره  
فى معتقل الواحات لنشاطه السياسى . ربما دفعنا للذهاب حب  
استطلاعنا بشأن اجتماع ثلاثتهم فى تلك الندوة وان كانوا سيقدمون  
مواقفا متباينة أم عكس ذلك . بعد دقائق من بدء ثالث المتحدثين  
وهو خريج الواحات غدا وأضحى أن الأمر « عكس ذلك » .

ما الذى يجعل مناظلا قديما يصاب بالحول فيفشل فى رؤية  
الحقيقة التى لا تفوت تلميذا منتبها بالسنة الاولى بالجامعة ؟ .

اختلفت مع سميرة حول الدكتور عبد الموجود اسماعيل حتى  
بعد ان قطعت علاقتى به ، وكان أمين يناصرني فننبرى معا للدفاع  
عنه وكانت هى تكرر بعناد « انه انتهازى وسوف تثبت لكما الايام ! »  
اثبتت الايام أنه أكثر تعثرا مما قدرت وكان ينشر تلك المقالات المطولة  
فى الجرائد يطلق فيها الفتاوى والتحليلات التى تنكر لأبجديات  
الصراع الاجتماعى الذى كان هو نفسه اول من فتح عيوننا عليها فى  
الجامعة . كف أمين عن الدفاع عنه وكدت أنا أيضا أكف لولا شراسة  
سميرة فى هجومها عليه الذى كان يستفزنى للرد ، أقول لها :

- انه يخطئ لا يختلف معك فى ذلك ولكنه حسن النية وهو

لا يقول ما يقوله ارتزاقا ، انه يجتهد فيما يعتقد انه الصواب وهذا انساني ومشروع ! .

فتشتعل سميرة غضبا وتلقى باجاباتها كمدفعية ثقيلة :  
- لا يا حبيبتي هذا ترف ! عندما يلبس عبد الوجود اسماعيل عمامة مفتى الديار ويشرع في وجوهنا ما يدعى انه مفتاح الحقيقة ويرهنا بمركزه العلمي الى حد تكذيب انفسنا والمشي وراءه الى سكك الخيبة والندامة لا أقول مسكين أخطأ دون قصد وهذا انساني ومشروع بل أقول يميني ومخرب وابن ستين كلب ! .

وصلت الى البيت وأعددت لنفسى كوبا من الشاي وشريحة من الخبز بالجبن وقد تملكنى السؤال « من اين تأتى الفشاوة على العيون ؟ » كان الجالسون على المنصة هذه الليلة سواسية مختوم على قلوبهم . اقلقنى الامر واغاظنى ولكنى لم أشعر بذلك الغضب المر الذى شعرت به سميرة فهل موقفها هو الموقف الطبيعى الاصيل أم ان المسألة تار شخصى يلون رد فعلها بهذا العنف القاتم ؟ هل حكاية أمين هى المحرك أم ان هذه الحكاية نفسها هى الدليل والإمارة انها على حق فى مرارتها وعنف ادائها ؟ .

أويت الى فراشى وحاولت النوم ولكنه استعصى : اتانى بدلا من النوم أمين حاضرا كأننا لم نواره التراب قبل عامين تميزه نفس النظرة الأسرة التى تمتزج فيها الدهشة بشيء من عتب .

عرفت أمين قبل ان أعرف سميرة وهو الذى حدثنى عنها عندما وقع فى حبها . كان قد جاء الى العاصمة من قريته فى الريف حاملا سلة بها ملابسه ونسخة قديمة من الف ليلة وليلة وكتاب المعذبون فى الارض لطف حسين . وبقي حتى أن درس فى الجامعة وتخسرج منها على حياته الزيفى . لم تواته الجراة على قول كلمة أحبك لسميرة . . عرض عليها الزواج فوافقت فأرسل الى والده فى البلد ليأتى لخطبتها وأتى ، وكانت المرة الاولى التى يزور فيها القاهرة . يوم الخطبة قال وهو يضحك : « لا أخفى عليكم عندما أخبرنى أمين برغبته فى الزواج من زميلة له فى الجامعة كدت أقول له « مالنا نحن وبنات مصر » ثم قلت لنفسى « أنت أرسلت ابنك الى القاهرة ليتعلم ويتنور أتركه يختار من تلقى به » ثم وهو يواصل ضحكته ويربت يده على صدره « وكان نعم الاختيار ونعم النسب » فتسورد وجه خالتي سيدة وابتسم عم مصطفى باستداد ، أما سميرة فأجابت ضاحكة : « لا تتسرع يا عمى ، انتظر عندما نعيش معا وستكتشف ان زوجة ابنك ليست بسيطة ! »

ولكنهما لم يعيشا معا . ذهب أمين ، دهمته سيارة وحمله المارة الذين لا يعرفونه غارقا في دمه . هل كان قضاء وقدر ؟ هل كان سير محدقا في همه الثقيل فلم ير السيارات السرعة في الطريق أم قصد أن يقتل نفسه وقد تمكن اليأس منه ؟ .

« انتحر ؟ ! » تقول سميرة مستنكرة وهي تكاد تثب متنمرة على من يجرو على النطق بها . « مستحيل لأنه حدثني بالتليفون قبل الحادث بساعة واحدة وقال لي انه خرج لتوه من بيت عبد الموجود قال : « تشاجرنا قلت له انه سافل فائقض على وكاد يكسر ذراعي وكادت أطبق على عنقه ثم قلت لنفسى عمرك خسارة يا ولد يضع على كلب ! » فكيف يقول هذا الكلام ان كان ينوى الانتحار ثم ان أمين ليس الانسان الذى ينهى حياته بيديه . دمه في رقابهم مهما قالوا وادعوا ! » .

في الليلة السابقة على الحادث التقى بها أمين وأخبرها انه سيذهب الى عبد الموجود اسماعيل لينقل له رايه في كتابه الاخير . حاولت سميرة أن تثنيه قالت له لا داعى ولا فائدة وربما كان من الأفضل ان يفتضح امره هو وأمثاله لكى لا يمشى وراءهم أحد ولكن أمين أصر : قال ان من حقه وواجبه أن يسمعه ما لديه « هو يعلن نفسه مفوضا باسم الغلبة » اليس كذلك ؟ اريده ان يعرف اننى والعشرات من أمثالى نعتقد انه يبيع الغلبة بثلاثين قرشا ! » . سميرة موقنة أن أمين لا يمكن أن ينهى حياته قاصدا وأنا أنساأل لانى رايت كيف كان أمين في الشهور الأخيرة مرهقا الى حد الجنون فهو مصاب بصداع يجعله غير قادر على فتح عينيه على اتساعهما . او يشكو من آلام المعدة وبشعور قائم بالفئيان او مشتتلا بالغضب ينهى نقاشه بالسباب وأحيانا بالتشاكب بالأيدي قلت لسميرة : — هل يمكن أن يكون أمين متعبا الى هذا الحد لمجرد الاختلاف مع ما يطرحه رفاقه من أفكار سياسية ؟ . استفزها كلامى :

— تطرحين الأمر بشكل غريب عجيب كان الاختلاف على طريقة فهو السبائخ . ليست المسألة اختلافا انه شسعور صدام بخيبة الامل والخذلان كأنك كنت تتبعين كبيرا انتميت له وآمنت به ثم اكتشفت انه فواد يبيعك مع أول منعطف ! . كدت اقول انها تبالغ ولكنى لم أجرو فقد كانت منفعة ولم أرغب في تعقيد الأمور .

سميرة أصفر منى ومن أمين ومع ذلك فهم أكثر رسوا وحسما

قررت منذ سنوات أن عبد الموجود انتهazy وأنه وجماعته يصلحون . لم تقبلهم في أى وقت وكانت تنظر اليهم بعين الشك . ساعتها لا أنا ولا أمين صدقناها فهل كانت على حق منذ اللحظة الاولى ام انهم كانوا يصلحون ثم فسدوا ولم يعودوا كذلك ، وهل كنا انضج منها ام كنا اغبياء ؟ .

كيف يأتى النوم ومن اين يأتى والاسئلة تتكاثر على وتطن في رأسى وتعذب كأنها ربات للعقاب .

كان الرئيس الثلاثة الجالسون على المنصة هذا المساء شديدى الاختلاف في . هم فالوزير السابق أبيض له رأس كالبيضة يؤكد شكلها صلعة لينة اللعان كان في كامل ملابسه الرسمية كأنه ذاهب لعقد قرانه ، أما الكاتب فكان شعره الرمادى خشنا مهوشا أطول قليلا من المعتاد وكان يلبس سترة صيفية قصيرة الكمين عليها أثر كرمشات تشى بأنه عندما خلعها في الليلة السابقة نسيها على مقعد جلس عليه بعض أفراد الاسرة . أما النقابى القديم فقد كان رجلا مسنا تكثر في وجهه التجاعيد يميزه شعر قطنى ويلبس قميصا سميا بكمين طويلين ويزرر قميصه حتى أعلى الرقبة رغم أنه لم يكن يلبس رباط عنق .

بدوا مختلفين في الشكل والملبس وحتى في أسلوب الحديث فقد تحدث الكاتب بالفصحى السلسة وتنقل الوزير ما بين الفصحى والعامية وكان يخطئ في الحالتين أما النقابى فكان كلامه بعامية بسيطة ومؤثرة . ورغم الاختلاف كادوا يتفقون فيما قالوه وكانهم قرأوا على نفس الشيخ واتفقوا مسبقا فيما بينهم .

قبل سنوات قليلة كان مشهد كهذا كفيل بهز ثقتى فيما اعتقد ، أقول ما دام هؤلاء الناس على اختلاف مواقعهم قد اتفقوا على قول هذا الكلام فلا بد انه الحقيقة ولا بد أننى المخطئة أشك في نفسى وأكذبها . الآن لم أعد أفعل ذلك ، وعاد السؤال الذى يشغلنى هو : « ما الذى يجعل اليمين واليسار والوسط يجمعون على نفس الشئ ؟ » حين أطرح السؤال على سميرة تجيب بلا تردد « كلهم يمين ، لماذا لا تبصرين ما أبصر ! » تكرر في احتجاج : « صدقنى ، لماذا لا تصدقنى ؟ ! »

الامر المدهش في سميرة أنها رغم شكوكها الغالبة تثق ثقة مطلقة في الناس وتظل تكرر : « الناس حلوين مثل الفل » وعندما أقول

لها وأنا ابتسم : « وأولئك الذين تسلطوا عليهم لسانك بلا رحمة  
اليسوا ناسا ؟! » فتجيب : « أتحدث عن الناس العاديين الذين لا  
يدعون شيئا ، همومهم كثيرة وعيوبهم كثيرة ، ولكنهم لا يدعون أنهم  
سفراء ومبعوثون وقادة وثوار وقابضون على حقيقة الدنيا والآخرة  
.. عندما أقول ناس أفهمى انى أقصد الغلبة ! » فأستغرب منطلقها  
وأستغرب إيمانها المطلق بما تقول ، وأستغرب أكثر تجاور اليقين  
والوسواس فى صدرها . أحيانا أقرر انها حادة ومتطرفة وأحيانا  
اتساءل أن لم تكن أعفى منى وأنضج وأكثر جراءة ؟! .

قمت بأجازتي السنوية وعندما عدت الى عملي أبلغت أن سيدة تدعى زينب عبد الحميد اتصلت تليفونيا عدة مرات ففسدت انهما تريدني لأمر ضروري . ذهبت لزيارتها بعد انتهائي من العمل وعندما طرقت بابها فتحت لي فتاة لا أعرفها ، فهمت منها أنها تقوم بلوازم البيت وترعى زينب عبد الحميد التي كانت تلازم الفواش منذ أسابيع .

وجدتها ترقد في سريرها وبدأت لي متوجسة من حالتها الصحية وإن لم أر فيها ما يدعو للتوجس . كانت أكثر نحولا وبوجهها شحوب وشيء من الوهن ولكنها تحدثت معي بشكل عادي ونادت على الفتاة التي كان اسمها نادية وطلبت منها أن تعد لنا القهوة وعندما قمت للانصراف أصرت على مرافقتي الى الباب .

زرتها مرة أخرى بعد أسبوع وتأكدت أنها تواظب على ما وصفه لها الطبيب من دواء وأكدت عليها أن تتصل بي لو احتاجت أي شيء . لم تكن صحتها قد تحسنت ولكنها أيضا لم تكن قد تدهورت . قبل أن أنصرف كتبت عنوان البيت للشفالة ورقم تليفوني في العمل .

بعد يومين استيقظت على طرق محموم على الباب ولما فتحت وجدت نادية باكية ، قالت أن زينب عبد الحميد استيقظت قبل ساعتين وقامت الى الحمام وتقيات ثم سقطت في غيبوبة . وكان الناكسي ينتظر بالباب .

وجدتها في السرير مغمضة العينين بلا حراك . كانت فعلا في غيبوبة : اتصلت بطبيب من زملاء سعد . جاء ثم جذب الفطاء على وجهها وأمسك بيدي وهو يصحبنى الى خارج الغرفة ويقاق الباب عليها : « انها ميتة يا سوسن ! » « ميتة ... كيف ؟ ! » « ميتة ! » كنت قد أخبرته أنها والددة صديقة لي مسافرة في الخارج . طلب منى بطاقتها ليستخرج شهادة وفاة وذهب .

الباب مغلق على المرأة التي فارقت الحياة ونادية تنحسب وأنا أفكر : « ما العمل الآن ؟ » لم يكن أمامي إلا سميرة . اتصلت بها في مكتبها أفهمتها بما حدث . قالت : « سأصرف » بعد ساعة كانت سميرة عندي . قالت أنها مرت بالبيت وأخبرت أهلها أن امرأة من معارفنا توفيت وأنا في مقام أولادها المسافرين في الخارج . »



أمرى ستلحق بى بعد قليل ، رابى ذهب ليقوم باللازم «  
- سوسن لم تقولى لى أبدا أن لايبكى زوجة ثانية ؟  
- لم أعرف بالأمر الا العام الماضى ...  
- العام الماضى !؟

توقعت أن تسألنى أكثر ولكنها لم تفعل وجلسنا صامتتين حتى جاءت خالتى سيدة وفى أعقابها عم مصطفى يصطحب امرأة بدينة متوسطة العمر تلبس ثوبا اسود وتحمل فى يدها لفافة كبيرة ورجلان يحملان ثقالة معدنية ودخل أربعتهم الى الحجرة المغلقة . ثم خرج عم مصطفى والرجلين وبقيت المرأة البدينة التى سمعتها تطلب من نادبة أن تسخن ماء وتضيف بلهجة قوية آمرة : « أريد الماء دافئا وليس شديد السخونة !. » ثم « نادى على الستات » .

دخلنا الحجرة . كان الرجال قد أفسحوا مكانا للثقالة المعدنية ونصبوها . أما زينب عبد الحميد فكانت على حالها فى السرير مغطاة كما تركها الطبيب . وكانت السيدة البدينة قد جلست على مقعد مجاور للسرير وفتحت اللفافة التى أتت بها . كان بها أمتار من الحرير ومنشفة وزجاجة ماء ورد .

أمسكت المرأة بخيط ولصمته فى ابرة ناولتها لخالتى سيدة التى أمسكت بقطعتين من القماش الأخضر وراحت توصلهما ببعضهما ليصبح عرض القماش مزدوجا . أعطتنى المرأة قماشا أبيض وأعطت مثله لسميرة فبدانا نحذو حذو خالتى سيدة . كنا نعمل فى صمت لم يقطعه الا صوت المقص عندما أمسكت المرأة به وأعملته فى قطعة من القماش . وكان الهواء فى الحجرة ثقيلًا كأنه مادة تتيبس فى الرئتين وتحول الى حجر .

ثم أحضرت نادبة الماء وتعاونت خالتى سيدة مع المرأة البدينة فى نقل زينب عبد الحميد من فراشها الى السرير المعدنى ثم خلعت عنها ملابسها وخاتمتها الذهبى الذى كان فى بنصرها الأيسر وسلسلة تنتهى بحلية من الذهب على شكل قلب . وضعت المرأة اللابس جانبا وأعطت الحلى لخالتى سيدة التى أعطتها لى فوضعتها فى جيبى .

كانت زوجة أبى مسجاة أمام عيني عارية تماما . بدت لى نائمة سوف تصحو بعد قليل حتى أننى جففت عندما سكبت المرأة دفعة ماء من كوز معدنى على الجسد الساكن وبدأت بتصبين الشعر والوجه والأذنين والعنق ، تصبن ثم تسكب الماء فى دفعات قوية وهى تردد بصوت جهورى :

يا الله الا الله

لا اله الا الله  
في الموت الشهادة وساعة الولادة  
لا اله الا الله

ثم تنقل الى الصدر والذراعين والبطن والفخذين والساقين  
تصبن وتفضل بالماء :

انزلى قبرك ، سلمى على اهلك  
قوليلهم آتسناكم يا عباد الله  
لا اله الا الله

كانت الدموع تغطي وجه خالتي سيدة وهي تنحنى على الماء  
تفترف منها وتسكب على الجسم المسجى وتكرر بلا انقطاع :

لا اله الا الله  
لا اله الا الله

والمرأة السمينة تواصل عملها تصبن الجنب الايمن والظهر  
والمقفي ثم تصبن الجنب الايسر وتصب الماء وهي تردد :

مقعدك مقعد الكرامة  
خرجتك خرجة الشرف  
لا اله الا الله

ثم تحرك يدها بايقاع متسارع تملأ الكوز وتلقى بما فيه بقوة  
المرّة تلو المرّة على الجسد كاملا من شعر الرأس حتى أصابع  
القدمين :

لا اله الا الله  
لا اله الا الله  
لا اله الا الله

ويبدو الصوت كجوقة كاملة رغم صمتي وصمت سميرة وصمت  
نادية التي التصق ثوبها بصدرها مبللا بالعرق ورذاذ الماء المتطاير  
والدموع .

جفت المرأة السرير المعدني بمنشفة ثم جسد زوجة ابي بمنشفة  
اخرى . تطلعت الى الجسد المفسول فعاودني الشعور بأنها نائمة ،  
في سكونها عدوية وصفاء . كانت طويلة ونحيفة سمراء سمرة ورقاقة  
كالحقوة الشقراء . لم يكن بالجسد المسجى شيء من الترهل لا في  
الثدين الصغيرين ولا في البطن والفخذين . وكان الوجه  
وديعا غطته المرأة البدينة بقطعة من الشاش اعقبته بقماشة بيضاء  
على الصدر ثم فردت ثلاث راقات من القماش القطنى الابيض فطنتهم  
بالحرير الاصفر فالأخضر وأخيرا بقماش حريرى أبيض رقيق به

زركشات وتجميدات من نفس لونه ثم أفرغت زجاجة ماء الورد عليه بعدها أمسكت بطرف الاقمشة السبع وأمسكت خالتي سيدة بالطرف المقابل وقلبتاه معها ثم ادخلناه تحت الجسد الذي أصبح ملفوفا في الكفن . وجاء الرجال حملوها وذهبوا .

بكت خالتي سيدة طويلا وهي تكرر ان المسكينة ماتت دون ان ترى اولادها البعيدين في القرية . تبكى وتكفكف دمعها ثم تقول كأنما تواسى نفسها : « لكن ربنا أوقف لها أولاد الحلال ، لانها أكيد كانت بنت حلال الله يرحمها » .

وعندما عاد عم مصطفى بعد ساعتين قال موجهها حديثه الى : « اكتبى لاولادها يا سوسن كان كل شيء متيسرا . كانت طائفة كالريشة ونحن نحملها على اكتافنا ونهرول للحاق بها . اكتبى لهم كان كل شيء متيسرا والحمد لله » ساعتها بكت سميرة ، انسالت الدموع من عينيها غزيرة ومدارة فبكت أمها معها .

أقمت بيت زينب عبد الحميد ثلاثة ايام . قلت لأمى ما قالتها سميرة لأمها ، ان التى ماتت هي أم صديقة لنا مسافرة فقالت أمى : « وما شأنك أنت ؟ وهل تبحثين عن المتاعب بحثا ! » وقلت للجيران الذين اتوا للعزاء أن المتوفاة خالتي وان أمى وباقي اخوتى يقيمون فى أسوان ولم يتمكنوا من المجيء وقلت لاصدقائى أن المرأة أخت أبى فى الرضاع وليس لها اهل الا نحن . كنت اكذب طول الوقت ، أوّلف حكاية مقبولة للبعض وأغيرها تماما لتصبح مقبولة للبعض الآخر وأشعر فى نهاية اليوم بانهاك هائل وضيق فى صدرى فما الذى كان يحدث لو لم تقم سميرة معى تلك الايام ؟ .

مساء اليوم الثالث أغلقنا باب الشقة بالمفتاح الذى سلمناه لبواب العمارة ليحمده الى صاحب البيت ومضيئا . سميرة تحمل فى يدها حقيبة صغيرة بها صور ورسائل متبادلة بين أبى وزينب عبد الحميد وأنا أحمل فى جيبى السلسلة الذهبية والخاتم الذى نقش عليه اسم أبى .

- هل أخبرك سعاد بسفره ؟  
- لم يخبرنى  
- أخوك جبان ، سافر سرا كأنه لص ولم يترك الا هذه الرسالة  
لزوجته .

كلام مقتضب فى سطور قليلة قرأتها ثم طويت الورقة واعدتها  
اليها :

- لم يعطك عنوانه اذن ؟  
- لم يقل لى انه ينوى السفر !  
قمت لأعد فنجالين من القهوة ، كان الامر قابضا بما لا يطاق .  
هل تريد عنوانه لكى تذهب اليه مرة أخرى وتعيده قسرا . أمى  
لا تتعلم ولا تتوب كأنها قطار سكة حديد يجرى الى مقصده لا فرق  
ان كانت على جانبيه ملاعب للأطفال أو قرى متفحمة ٠٠٠ أى قطار  
وأى حديد ! وجهها شاحب وعيناها غائرتان بهما آثار بكاء وأرق ،  
انها قلقة الى حد الفرع فلماذا أظلمها ؟  
أقامت أمى الدنيا ولم تقعد بها بحثا عن سعد . رجحت انه سافر  
الى باريس أو روما فاتصلت تليفونيا بالمعارف والاصدقاء فى هاتين  
العاصمتين تطلب منهم البحث عنه . علق مجدى ساخرا : الخطوة  
القادمة لخديجة هى تبليغ الانترنت وتكليفهم بالقبض على الولد  
حيا أو ميتا ! « فزجرته زينب .

بعد ستة أسابيع من سفره وصلتني رسالة من سعد : « كان  
السفر ضروريا ... مجرد محاولة قد تنجح لوصل ما أنقطع ،  
واحياء المشروع القديم ، سأحاول ان أنتظم فى الدراسة وأعود الى  
الرسم . صحتى جيدة . تلازمنى الوحشة وأحيانا أشعر بالخوف  
ولكننى ما زلت أطلع الى طاقة صغيرة مفتوحة فى الجدار . افتقدك  
يا سوسن وأعرف أن وجودك ولو فى البعد سند هائل لى . »

عنوان سعد الذى يؤرق أمى البحث عنه معى مكتوب بخط يده  
على الخطاب الذى أرسله الى من باريس . أحمله فى حقيبتي أريد  
أن أعطيه لها فترتاح وأخشى أن يؤدي ذلك الى حادث مؤسف  
جديد . أقرر أن الحكمة تقتضى الا أعطيها العنوان وبلازمنى شعور  
بالذنب واحساس موجه بأننى أقسو عليها .

قررت أن أقول لها إن سعد اتصل بي تليفونيا من باريس :  
- قال أنه يشناق لك كثيرا ويريد الاتصال بك ولكنه لا يجرؤ  
لأنه يعرف أنك غاضبة .

- هل تكذبين ؟

- ولماذا أكذب ؟

- هل قال لك سلمى على ماما ؟

- قال سلمى عليها وقال أنه يفتقدك ويقلقه أنه تصرف بما  
يفضيك .

- لماذا إذن لا يعود ؟

- لأنه يريد أن يتعلم الرسم ويرسم .

- أنه ولد طائش . لو اتصل بك مرة أخرى قولي له أنه لم يعد  
يعنى لي شيئا . لم أعد أمه ولا أريدا أن أكون . عندما يتصل أطلبني  
منه رقم تليفونه والعنوان !

سعد يكتب لي رسائل وبطاقات تثير القلق ، أفضى لسميرة بما  
أشعر به تقول :

- سعد مترف وهش . اكتبني له يا سوسن ، اكتبني له أنه  
ما دام اتخذ قرارا جريئا وقاطعا بهذا الشكل فليجمع شتات نفسه  
ويتصرف بالمسئولية اللائقة ويبدأ في إنجاز ما يريد .

- الكلام سهل يا سميرة والانسان ليس آلة .

- ومن قال انه آلة ولكن هناك شيء مترف في أكتئاب سعد .

- أنه حزين ومهزوم ويبحث عن مخرج .

- أحيانا لا أفهمك يا سوسن ان كان سعد مهزوما فلماذا لم

يبق بهزيمته ويتحمل مسؤولياته كطبيب وزوج !

- أنت لا تفهمين !

- أنت على حق . قدراتي لا تمكنني من الفهم !

قالتها بعدة ساخرة كأنها تلقى بالكلمات في وجهي .

مكتئب على طريقة المترفين أم حزين حزن المحاصر لم يعد هو  
السؤال فقد ذهب سعد .

عندما دخل على مجدى ذلك الصباح عرفت قبل أن ينطق :

- سأسافر بعد ساعات لأن سعدا بالمستشفى ، ارتدى ملابسك

ساوصلك الى أمك .

- انتحر ؟

- شدي حيلة .

تحاشى التقاء العيون فعرقت أنه ذاهب ليعود به محمولا في

نعمته . أوصلنى الى بيت امى . مد يده لمصافحتى وأجهش بالبكاء .  
وقفت فى الشارع أمام باب المصارة أتابع سيارته وهى تبتعد .  
القى سعد بنفسه تحت عجلات القطار المقل بسرعة الى محطة  
مترو الأنفاق فهل كان قرارا مبتا حمله الى ذلك النفق المظلم ينتظر  
الوحش المقل باتجاهه بحدقتين مربعتين أم أنه كان خاطرا مباغتاً  
داهمه فجأة فنفضه بلا تفكير أم هل زلت قدمه فسقط بلا وعى أو إرادة  
تحت عجلات القطار ؟

ذهب الفتى الجميل الذى كنت أحبه لأنه أخى وأحبه لأننى لم  
أر رجلا فى عذوبته . أبكىه بحرفة حتى عندما تحف دموعى ولا أبكى .  
أبكىه لأنه أخى وأبكىه لأنه كان جميلا وأبكىه لأنه مات قبل الأوان  
وأشفق على امى التى بدا لى أن موت سعد سيجعلنى أنفر من مجرد  
رؤيتها . أرى فجيعتها فأعرف أن لها أعظم وأجندى اتساءل : لماذا  
قسا سعد هكذا عليها ؟

عاد مقلما فى صندوق وواريناه التراب وذهبنا .



رأيتة وهو يدق الباب الزجاجى خارجا من إحدى شركات  
الطيران لم يعد الولد الذى يؤكد تحول جسده وملابسه أنه ولد .  
كان هادى الآن رجلا ربعة فى منتصف عقده الرابع بجسده شىء  
من امتلاء وإن لم يكن ممتلئا تشى قصة شعره وإطار نظاراته وهىئة  
شاربه وملابسه البسيطة المنتقاة رغم ذلك بعناية باليسر المادى  
والمكانة الاجتماعية .

حيانى بصخب وحرارة ولم أكن قد التقيت به منذ أكثر من عشر  
سنوات . استفسر عن ملابس الحداد التى أرتديها فقلت له .  
أخبرنى أنه مسافر فى اليوم التالى وأنه يعمل منذ سنوات مدرسا  
للأدب العربى بجامعة هولندية . قال قد لا نلتقى قبل سنوات  
ودعائى لتناول الفداء معه فقبلت . وعلق ونحن ندخل الى القاعة  
المكيفة لطعم بأحد الفنادق الكبيرة : « هنا على الأقل بإمكاننا أن نجلس  
بشكل إنسانى بعيدا عن الحر والرطوبة الخائفة » .

جلسنا وطلبنا كوبين من عصير الليمون وأخترنا ما سوف نتناوله  
من طعام وبدأ ونحن نجلس صامتين أننا لن نجد ما نسوف نقوله  
لم يسألنى عن سميرة ولم أعرف أن كان قد علم يوفاة أمين . تحدث  
عن عمله ودراساته ، عن حياته فى هولندا قال أنها سهلة وهادئة  
رغم لحظات الشعور بالفسرة . قال أنه تزوج مرتين ولم يوفق

وسألني ان كنت قد تزوجت . واتى النادل بالطعام فاكلنا ولما انتهينا غادرونا المطعم وذهب كل منا في سبيله .

في الشارع لفح الهوا الساخن وجهي وبدت الرطوبة اشد وطاة بعد ساعتين من الجلوس في قاعة مكيفة الهواء . كان اليوم قانظ الحرارة ، الشمس تقدح والهوا مزوم والارض كالنار تذيب الأسفلت وكغيري من المارة سرت مسرعة اتقاء للحرارة وكنت اتسائل ان كانت شدة الرطوبة هي التي تثقل صدرى أم انه شعورى بالضيق . سرت حتى وصلت الميدان الكبير .

هذا ميدان كبير ، كالمدينة به كل شيء : الناية الفخمة والبيت العتيق الذى يقاوم بلاء الزمن والفندق والبنك وشركة السياحة والمحل التجارى والمقهى القديم والمتحف المصرى والجامعة الاجنبية والكشك الخشبي الذى يبيع اشربة الشيخ عبد الباسط وام كلثوم وبائع الجرائد ومحطة الاوتوبيس والطريق الصاعدة بالسيارات الى جسر معلق والسلالم التى تهبط بالناس الى نفق ارضى للمرور وسيارة الامن المحشوة بالجنود الفقراء وماسورة ماء الصرف المكسورة حولها بركة الماء الاسن ونافورة الزينة . كل شيء فى هذا الميدان الذى يتوسطه نصب تذكارى للشهداء . اتطلع الى الميدان فتلتقط عينى بين سيل السيارات المندفعة سيارة سوداء من ذلك النوع الشائع فى نقل الموتى لا تشبه تلك السيارة الاخرى التى استوقفتنى من قبل يجرها جوادان مطهمان وتزينها ملائكة صغيرة مطلية بطلاء مذهب ، كانت سيارة كئيبة وجرداء كمضمونها .

« هذا ميدان كبير » كررت لنفسى وانا اتطلع الى المارة وهم يعبرون ركضا فى حذر متوجس ، لم تكن هناك أرصفة ولا خطوط لعبور المشاة . انه ميدان كبير وعلى أن اعبر يحرص كى لا تدهمنى سيارة مسرعة فافقد حياتى بلا ثمن .

روايات الهلال تقدم :

---

# وكانت المدن ملونة

بقلم :

رجاء نعمة

تصدر : ١٥ يناير سنة ١٩٩٠



رقم الايداع : ٨٩ / ٧٨٢٦  
انترقيم الدولي : ٠ - ٤٥٢ - ١١٨ - ٩٩٧ ISBN

## هذه الرواية

« كيف يتعكر ماء النبع ومن أين تأتي نباتات الوحشة وبأى قانون تتكاثر وتعيق المجرى وتسد الطريق ؟ » تتساءل سوسن في محاولة للفهم وترتيب مفردات عالمها .

سوسن هي الابنة وخديجة هي الأم ، والرواية التي تجمعهما وتشتركان في سرد وقائعها تقدم مجموعة من العلاقات التي تجسد عالمين مختلفين متناقضين وإن تداخلا وتشابكا . عالم يبدو مهيمنا وراسخ الدعائم ، تتحرك فيه خديجة بخطى الملوك الواثقة ، وعالم يتخلق عبر الأسئلة والهموم التي تعيشها سوسن .

هي رواية عن أم وابنتها وهي أيضا رواية تلتقط شيئا من ملامح تاريخنا الراهن لهجومه وهزائمه وخيباته واشواقه في التجاوز .



رضوى عاشور

● من مواليد القاهرة عام ١٩٤٦

● تخرجت في كلية الآداب جامعة القاهرة في عام ١٩٦٧ وحصلت على الدكتوراه في الأدب الأفرو - امريكي من جامعة ماساشوتس بالولايات المتحدة عام ١٩٧٥ .

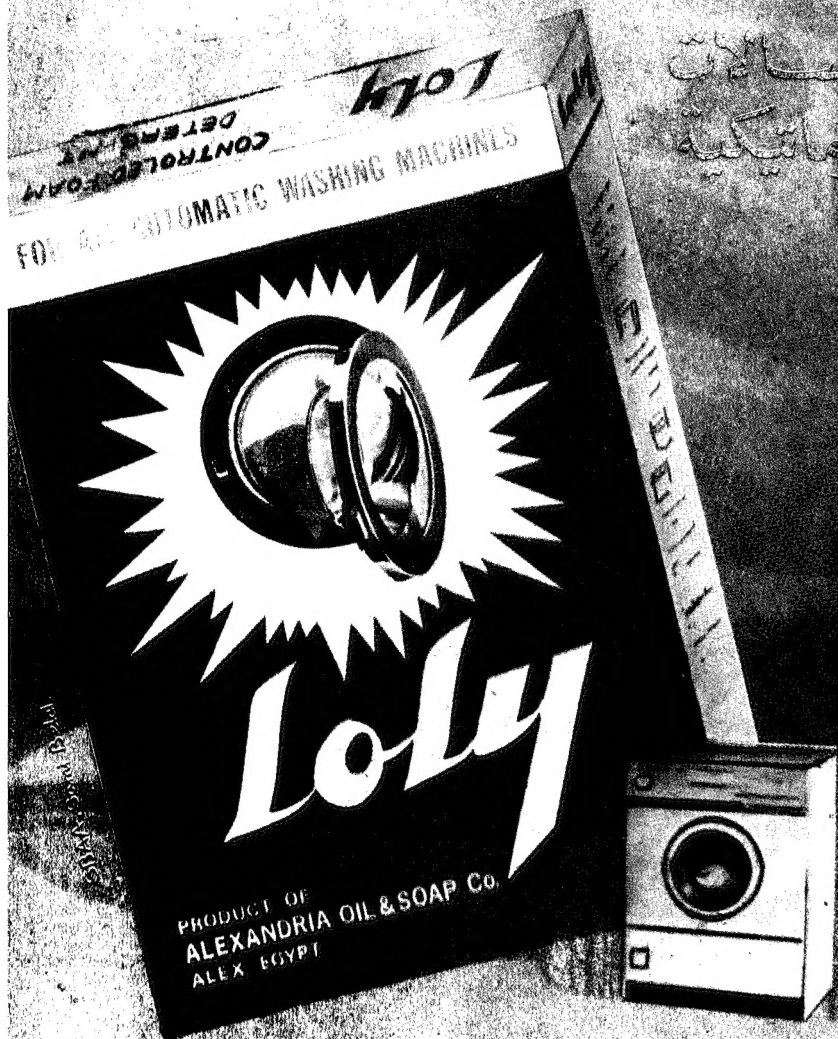
● صدر لها كتابان في النقد هما الطريق إلى الخيمة الأخرى : دراسة في أعمال غسان كنفاني ( ١٩٧٧ )

والتابع ينهض : الرواية في غرب افريقيا ( ١٩٨٠ ) ونصان إبداعيان هما الرحلة : أيام طالبة مصرية في امريكا ( ١٩٨٢ ) وحجر دافئ

رواية ( ١٩٨٥ ) ولها مجموعة قصصية تحت الطبع بعنوان « رايت النخل » .

● تشغل وظيفة أستاذ بقسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة عين شمس .

للمسابلات  
الآتوماتيكية

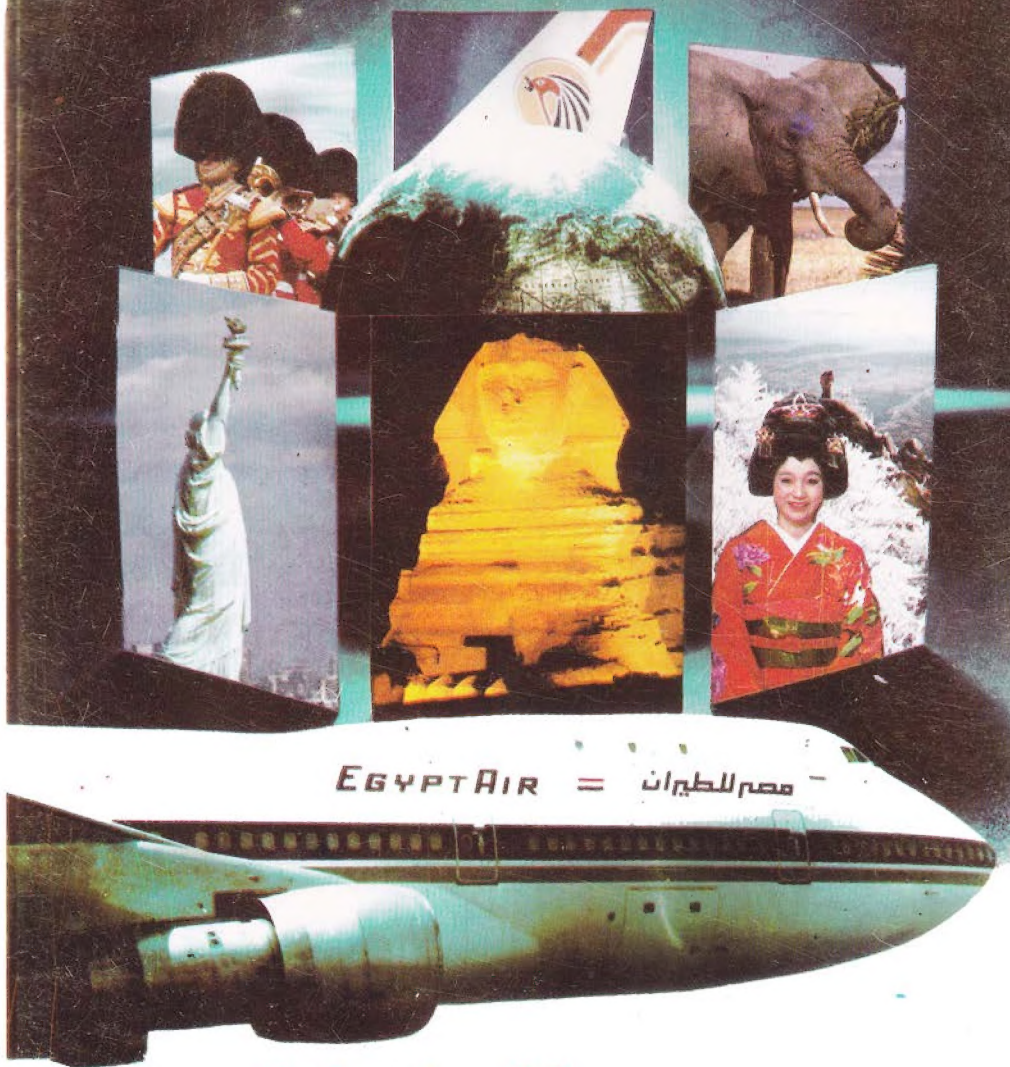


• رغوة محدودة تمتد على  
• الوحيد الذي يتميز  
على أن يجلب فعالية  
لها القدرة على  
التيقن البيرونييت

لولا

شركة الاسكندرية للزيوت والار

أسلوب عصري للتنظيف  
ذو أداء فعال متميز



## مصر للطيران

٢٠٠ رحلة أسبوعيًا إلى ٥٠ مدينة  
في مختلف أنحاء العالم